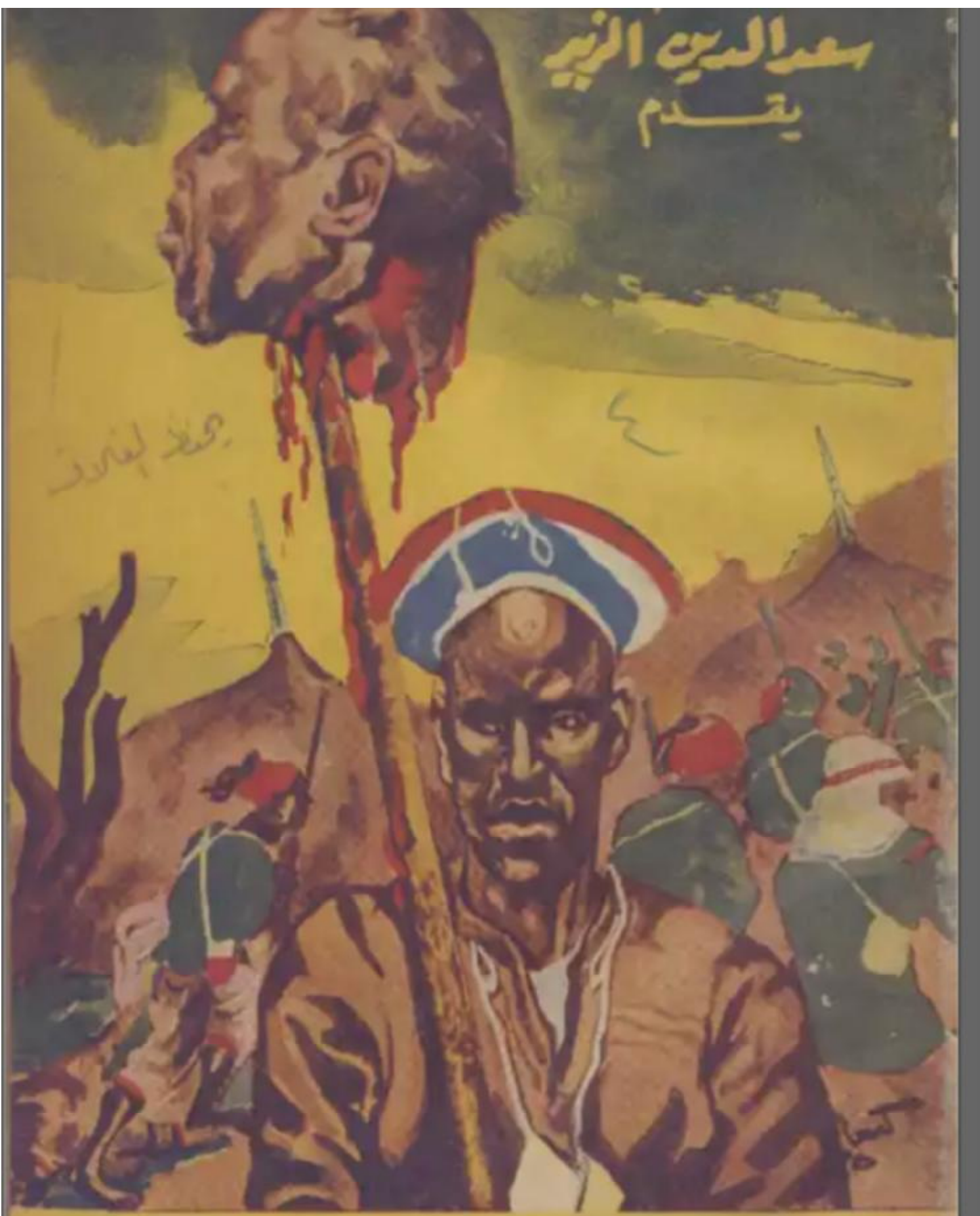


سعد الدين الزبير  
يقدم



مذابح الاستعمار الفرنسي في السودان



البرقضى

مختبى السودان الجديدة

[www.facebook.com/sh143a](http://www.facebook.com/sh143a)

<https://t.me/sh143a> تليجرام

قائماً  
سعد الدين الزبير  
يعتزم

امبراطورية  
رابح الزبير

مذابح الاستعمار الفرنسي في السودان

الطبعة الأولى

١٩٥٣



المؤلف



# الإهداء

إلى الأبطال الذين كانوا الاستعمار من أجل حرية أوطانهم ..  
في كل مكان . . .

إلى الأحرار الذين سقطوا دفاعاً عن مبادئهم . . .  
في كل زمان . . .

إلى أخواننا في الجنوب . . الذين قدموا للبطولة واحداً  
منهم . . وللحرية قرباناً ما زالت آثاره تضيء لنا الطريق  
حتى اليوم . . .

إلى أحفاد عمر مكرم . . والمهدى . . وعرابي . . والزيير . .  
وغيرهم ممن ذاقوا لذة الموت في سبيل حياة كريمة أفضل ،  
واكتنوا بمرارة النفي والاضطهاد من أجل هدفهم الأسمى . . .  
أهدى سيرة راجح الزيير . . .

## مقدمة

في عام ١٩٠٠ ، وعند أسوار بلدة « كاسوري » الواقعة عند ملتقى نهر شارى « بلوجون » ، في قلب أفريقيا الوسطى وهى المدينة التى عرفت فيما بعد باسم « فورت لامي » ، استطاع الاستعمار الفرنسى الذى انحدر اليها عن طريق مستعمرات الجزائر ونيجيريا والكونغو ، أن يصرع بطلا سودانيا ، وأن يستيخ لنفسه التمثيل بجثته والطواف برأسه فوق إحدى الحراب فى الأسواق بعد أن كان مجرد ذكر اسمه فى تلك البقاع كفيلا بأن يوقع الرعب فى قلب كل خائن أو غاز .

وهذا الكتاب يروى قصة ذلك البطل . راجح الزبير . .  
وقصة الاستعمار الفرنسى الذى ظل راجح قرابة عشر سنوات يكافحه باسم أهالى تلك البلاد كفاحاً مجيداً لم يبخل فيه بروحه أو أرواح رجاله وأفراد أسرته من بعده . . وكان تيار الغزو قد بدأ يتنبه فى أواخر القرن التاسع عشر إلى تلك الأراضى البكر فى مجاهل أفريقيا باعتبارها سوقاً جديدة للاستغلال وهصدراً لا ينفد للمواد الخام اللازمة لمعجلة الصناعة وقد بدأت تدور هندنذ فى أوروبا فى سرعة عاصفة . فكان طبيعياً عندئذ أن تلد

الحاجة في تلك البلاد أبطالا يذودون عنها ذلك التبار الزاحف ،  
وكان راجح الزبير من بين هؤلاء .. كان ذلك القائد الذي  
صافح النصر في أكثر من مائة معركة دارت خلال مساحة امتدت  
آلافاً من الأميال من بحر الغزال شرقاً حتى شواطئ بحيرة  
تشاد غرباً .

ولست أدعى أن أحداً من هذا الجيل سواء في شمال الوادي  
أو جنوبه قد سمع شيئاً عن راجح أو ألم بقصة بطولته على شدة  
حاجة تاريخنا الحديث إلى ذلك . وإلى التفتيش عن سير أبطالنا  
ونشرها على الناس والعالم أجمع ليعلم الكل أن صفحة أفريقيا ،  
في كفاحها ضد الاستعمار ، تشرق بسير رجال لا يقلون بطولته  
أو خلوداً عن أبطال الغرب الذين لم تكف المطابع أو مؤرخيهم  
عن تزويدنا بتاريخهم وأخبارهم في كل مناسبة حتى لقد زحموا علينا  
حياتنا ، وحتى لقد كدنا ننسى أن لنا تاريخاً .. وأن لنا أبطالاً .

ونحن لا ننكر أن البطولة الانسانية العميقة لا تعرف وطناً ..  
وأن أبطال الحرية في فرنسا مثلاً هم أبطالنا أيضاً في مصر عندما  
يضطرننا كفاحنا هنا من أجل الحرية إلى أن نستلهم مثلاً عاياتخالدة .  
ولكننا ننكر أن ننسى قوميتنا في زحمة الدعوة إلى العالمية حتى  
ليصبح النشأ في بلادنا أكثر علماء بفولتير ، وجان دارك ، وجان  
جاك روسو ، وإبراهيم لنكولن ، وغاندى ، منهم بعمر مكرم

وأحمد عرابي ، وعبد الله نديم ، والزيير رحمت ، وراجح الزيير ،  
ومصطفى كامل ، ومحمد فريد . .  
من المسئول عن ذلك . . ؟

المسئول الأول هو الاستعمار من غير شك . . الاستعمار  
الذي لم يستبح أرضنا وقوتنا وأرواحنا فحسب ، وإنما استباح  
أيضاً ثقافتنا وفكرنا وعقولنا فخرم علينا بذلك أن نقرأ أو نكتب  
عن سير أبطالنا ممن رفعوا أعلام الجهاد ضده وبذلوا في حربه  
من دمائهم وأرواحهم ما يتضائل بعده كل بذل أو فداء .

لقد فعل الاستعمار هذا في كل مكان حل به . . فعله لكي  
يحافظ على كيانه ووجوده وإلا فهل كان الاستعمار الانجليزي  
يقوى على أن يظل سبعين عاماً جاثماً على صدر الوادي شماليه  
وجنوبه لو كان قد أتيج لأبنائه مثلاً أن يشبوا على معرفة تامة  
صادقة بكفاح عرابي ضده في الشمال وكفاح المهدي والزيير  
في الجنوب فعملوا بذلك أن ضحايا معارك الاسكندرية والتل  
الكبير وأم درمان ما زالت تصيح في طلب الثأر . ؟

وهل كان هذا الاستعمار نفسه يقوى على الادعاء بأن جنوب  
السودان لما يزل على حال من البداوة لا تسمح له بأن يشارك  
في تقرير مصيره لو كان قد أتيج لأهله يوماً أن يقرأوا عن كفاح  
راجح كايبن من أبناء هذا الجنوب أقام امبراطورية ، وحكم شعوباً ،



وقاوم جيوشاً ، ونشر الدين والعلم والحضارة في قلب أفريقيا المظلم ..  
كل هذا حدث في أواخر القرن التاسع عشر أى منذ أكثر  
من خمسين عاماً . ١

وهل كانت فرنسا تقوى على خداعنا وخداع الشعوب  
المستضعفة بأنها أم الحريات لو كان أبناؤنا بدلاً من أن يلقنوا  
في مدارسنا الشيء الكثير عن بطولات نابليون وفتوحاته ،  
يلقنون تفاصيل ما فعله نابليون هذا بخيله في صحن الأزهر أو  
ما أوقعه من مذابح بعلبام القاهرة وأبنائها إبان ثورتهم عليه ،  
أو ما ارتكبه خلفاؤه بعد ذلك من بربرية ووحشية في وسط  
أفريقيا عندما اجتزوا رقبة راجح وعلقوها فوق حرابهم ثم أناحوا  
لغنائهم أن يرسموا صورتها وأن ينشروها في كتبهم وهي تنزف  
دماء وقد تدلت عروقها وأغمضت عيناها وكأنما لتتاح لهم فرصة  
معاودة النظر إلى الصورة بين الحين والآخر فتلذذ بذلك نفوسهم  
وتطرب أرواحهم المتعطشة إلى السفك والتدمير وإراقة الدماء .

\*\*\*

ولسكننا اليوم في عصر بعث جديد . .

فان مزامرة الاستعمار ضد تاريخنا وثقافتنا قد أزيح عنها العتاء  
ورفع الحظر عن أسماء لم تكن تذكر من قبل إلا همساً وفي سطور

قليلة متواضعة كاسم عمر مكرم الذى لم يكن يعرف عنه سوى القليل فاصبح اليوم علماً يدوى فوق المنابر وفي جنبات الميادين، وبدأت البلاد تشعر بحاجة إلى التعرف على أبطالها وكتابة تاريخهم من جديد ففاز عرابي ببعض ما يستحقه من تقدير، وبدأت توضع عنه والألسنة تكثر من ذكره، كما بدأ تاريخ المهدي الكبير في السودان يتضح رويداً رويداً فإذا بنا نطالع فيه حقيقة كبيرة رائعة كان الاستعمار قد حرص دائماً على إخفائها: وهي أنه لم يكن عدواً لمصر وإنما عدو الانجليز وحدهم. كذا لم تكذب البلاد تحتفل من جديد بذكرى مصطفى كامل حتى نشرت صحائف كانت قد طويت عمداً بالأمس فعرف أكثرنا ما لم يكن يعرف عن ذلك الزعيم الشاب الذى هز عرش اللورد كرومر في مصر.. واليوم أيضاً يدخل اسم راجح مع غيره في دائرة الضوء الذى يلقبه على تاريخنا شمس البعث الجديد فإذا بنا نستطيع أن نتحدث عنه في صراحة وحرية، وإذابه هو اسم يشرف الجنوب، وذكرى تثير الزهو في نفوس رجال الحرب ممن خاضوا المعارك وعرفوا أسرلة الحرب والنصر، وتبعث الفخر في قلوب الأحرار وهم يقرأون حياته كدرس حبيب.

•••

وحيث تكون البطولة تكون الخيانة أيضاً.. وحيث يوجد

الأحرار الذين يبيعون دماءهم في سبيل بلادهم يوجد الفريق الآخر الذى يبيع بلاده من أجل أن توهب له حياة كالذل أو أشد ظلماً . . ولولا هذا التناقض الذى يكون بعض طبيعة الحياة وأساسها لما استطعنا أن نضع لأعمال البشر مدلولات محددة كالبطولة والحرية والخير والجمال . .

ومن هذا التناقض تصبح سير الأبطال والأحرار مجالا لتفاعل حتى مستمر يستثير مع الإعجاب الضيق والسخط والثورة . . فمع النور فى تلك السير نحس بالظلام ونضيق به . . ومع البطولة فيها نعرف على حدود الخيانة فنسخط عليها ومع الحرية أيضاً نلمس قوى البطش والاستبداد فنثور عليها . . أجل : نضيق بكل ظلام ونسخط على كل خيانة ، ونثور على كل بطش واستبداد .

وهكذا كانت حياة رابح . . ففيها من هذا التفاعل المستمر ما لا يكاد يقف بنا عند زمن معين أو تاريخ بعينه أو حادثة بذاتها . . فلسوف تذكرنا خيوط الخيانة التى اصطدم بها رابح بخيانة توفيق خديوى مصر عندما استعدى قوات الانجليز على شعبه المسلم ، كما سنلمس فى بطش الاستعمار الفرنسى واستبداده صورة أخرى لما يدور اليوم من أحداث وفواجع فى تونس ومراكش ، ومن خلال الظلام والموت الذى أشاعته القوات الفرنسية فى هجومها على تلك الربوع الوادعة وهى تشرذ النساء والأطفال وتحرق

دورهم وأقواتهم سوف نلح مأساة الأطفال والنساء من أهل فلسطين وقد شردهم الاستعمار ، وحرّمهم القوت والمأوى ..  
ولا أحب أن يفهم عنى أحد أننى أقصد بقولى هذا ما يقول به البعض الآخر من أن التاريخ يعيد نفسه .. فما من شىء يرجع إلى الوراء والحياة لا تكرر نفسها ولا يمكن أن يكون هذا هو الدرس الذى نفيده من قراءة التاريخ .. وإنما أردت أن أقول إن الحقيقة واحدة فى كل مكان وأن الاستعمار الذى كلفه راجح منذ خمسين عاماً هو نفس الاستعمار الذى يقبض على عنق تونس ومراكش اليوم وهو نفسه الذى يطبق على فلسطين بأنيابه ..  
إذن فنحن نثار لراجح عند ما نشور على كل استعمار ، ونثار لكل شهيد عند ما نحطم كل ظلم ، وليست سير الأبطال سوى دعوة للنار ، وليس تاريخ المكافحين سوى حصن على الكفاح ..

• • •

أما بعد .. فقد قيل لى وأنا أعد صفحات هذا الكتاب أنه خليق بأن يحمل إلى أبناء جنوب السودان شيئاً من أخبار قائدهم راجح ربما يكون النسيان قد عدا عليها ، وأنهم سوف يتلقفونه كما يتلقف الابن رسالة من أبيه الذى غاب عنه طويلاً ..  
وقد يكون هذا صحيحاً إلى حد بعيد .. واكتفى مع ذلك لا أعد هذا الكتاب لأبناء الجنوب وخدمهم بقدر ما أسوقه أيضاً

لرجال التاريخ في مصر بمن شغلهم الأحداث عن كتابة حاضر السودان وماضيه فبات بذلك مكتبتنا العربية تعاني حتى اليوم نقصاً كبيراً في هذه الناحية على ما لها من أهمية وخطر ..

فإن استطاعت هذه الصفحات أن تثير واحداً من كتابنا الأجلاء لينفض تراب النسيان عن بطل آخر من أبطال السودان ، فإن مجهودي في تقديم هذا الكتاب يكون قد أثمر ثمرة المرجوة ، وتكون كل مشقة بذلتها في تجميع مواده من مختلف المصادر رخيصة إلى جوار ما حققه من أهداف وبذا يكون قد نجح الكتاب أخيراً في أداء رسالته نحو شمال الوادي وجنوبه .

والله ولي التوفيق ... ٤

قائمقام

سعد الدين الزبير

القاهرة في يوليو ١٩٥٣

نشأة رابع

## تحت لواء الزبير

« أصل رابع - عصامية الزبير - جيش الزبير  
رابع يفضى على البلاى - المدرسة التي تربي  
بها رابع - الزبير يغادر السودان - من  
مذكرات الزبير . . . »

في نحو عام ١٨٤٦ وفي قرية من قرى بحر الغزال حيث كانت تعيش قبائل متعددة الأسماء والعادات واللهجات وان اشتركت جميعها في أنها تعيش على حال من البداوة الأولى، وتفرق في ظلمات من جهل كثيف ، ويتقاتل بعضها مع بعض فلا تبدأ المارك بينها يوماً واحداً . . في تلك البيئة المضطربة التي يحكمها قانون الغابة الأول وتنصارع فيها قوى العبودية والظلام . . خرج « رابع » إلى الدنيا . .

خرج « رابع » إلى الدنيا بعد خمسة عشر عاماً من مولد رجل آخر في الشمال هو « الزبير رحمت العباسي » الذي كان قد تفتحت عيناه في الثامن من يوليو عام ١٨٣١ على حياة من نوع آخر في جزيرة « واوسى » التي لم تكن تبعد كثيراً عن الخرطوم حيث الأمن ، والدعة ، والسلام تنشر أستارها الهادئة البيضاء . .



الفريق الزبير رحمت باشا



ولقد قدر لهُذين الرجلين بعد ذلك ، وعلى بعد ما بينهما من زمن ونشأة ومكان أن يلتقيا في منطقة بحر الغزال ، وأن تتصل بينهما الأسباب في وقت كانت فيه تلك الاصقاع قد بدأت تهتز تحت زعامة الزبير الشعبية متطلعة في ظلها نحو حياة أسعد وأفضل ، وأن تبلغ منزلة راجح ، ذلك الشاب المغامر الجريء ، منزلة رفيعة سامية من نفس الزبير فيقربه اليه ويسلمه قيادة جيشه وهو لما يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، ثم لا يلبث أن يتبناه ويضيف إلى اسمه لقب « الزبير » ، ليعرفه تاريخ الجنوب بعد ذلك ، وتعرفه وقائع الجهاد ضد الاستعمارين الفرنسي والانجليزى في زحفهما نحو قلب أفريقيا ، باسم « راجح الزبير . . . »

ولقد تضاربت الأقوال في حقيقة نسب ذلك القائد فضل غامضاً حتى اليوم وأن كان القول الراجح بشأنه ، وهو الذى أيدته القائد الفرنسي « أميل جنثيل Emile Gentil » ، الذى قاد المعارك الأخيرة ضد راجح ، أنه كان ابناً لأحد ملوك القبائل التى تستوطن حوض بحر الغزال وأنه نشأ نشأة حربية خالصة فشارك أباه وهو لما يزل صغيراً فى المعارك التى يخوضها ضد القبائل المجاورة ، حتى لقي أبوه فى النهاية مصرعه فى إحدى تلك الغزوات وكان راجح ما زال شاباً يافعاً ، وكان نجم الزبير قد بدأ يعلو وخصيته تد بدأ يذيع جاذباً حوله الأنصار والأتباع من أهل تلك البلاد ،

فانضم إليه رابع ومنذ ذلك الحين بدأ قدره الذي ربط بينه وبين  
الزير يعدة في صبر واناة لكي ياعب دوره المقبل .

• • •

إن تاريخ الزير وارتباطه الوثيق بحياة راجح الأولى بل وبمجلة  
التطور عامة التي لحقت باصقاع السودان الجنوبية في مطلع النصف  
الثاني من القرن التاسع عشر ، ليجعل من المستحيل على من يريد  
أن يؤرخ لهذه الحقبة الهامة من تاريخ السودان أن يغفل عن  
الامام به والتعرف عليه . وبالرغم من أن ذلك التاريخ بتفاصيله  
الممتعة ليس مكانه في الواقع هو هذا الكتاب (١) ، إلا أن ذلك  
لن يمنعنا من التعرض له هنا في إيجاز بقدر ما تفرضه علينا محاولة  
تتبع نشأة راجح والظروف التي أعدته ليكون قائداً ممتازاً .

نزع الزير إلى الأصقاع الجنوبية فرداً مغموراً أول الأمر  
في خدمة واحد من كبار التجار هو ، على أبي عمورى ، فلم تلبث  
شجاعته وهمته أن برزت به إلى الصفوف الأولى ولفتت إليه  
أنظار مخدمه الذي لم يجد بدا من اختياره كمساعد له غير أن  
الآمال التي كانت تجيش في صدر الزير لم تقنع بذلك النجاح  
بل دفعته ، وقبل أن يمضى على وصوله إلى تلك البلاد وقت طويل ،  
إلى أن يستقل في عمله وأن يبدأ في الاتجار لحسابه هو .

---

(١) راجع كتاب ( الزير باشا رجل السودان ) - المؤلف .

ورويداً رويداً مضت تجارة الزير تنتقل من رواج إلى رواج وساعدته مصاهرته للملك ، تسكمة ، ملك نيام نيام على توسيع دائرة نفوذه وتجارته ، كما ساعده ما جبل عليه من مهارة في اجتذاب القلوب ومن حسن معاملته لتابعيه على ذبوع صيته في تلك الأصقاع بما حدا بالناس إلى الدخول في خدمته ، وكان من بينهم رابع كما قدمنا . . . ولقد أدى كل هذا إلى توطيد مركز الزير ونمو زعامته نمواً أخاف ملك نيام نيام نفسه وملوك القبائل المجاورة فمضوا يحتكون به ، ويكيدون له ، ويتربصون بتجارته الأمر الذي دفع الزير إلى التفكير للمرة الأولى في أن يتخذ لنفسه جيشاً ، لحماية تجارته ونفوذه المتزايدين . . .

وكانت العادة قد جرت في تلك البلاد على أن يعرضوا للبيع في الأسواق أصحاب الجنايات كاللصوص والزناة حيث يذبحون كالنجاج وتباع لحومهم طعاماً لمن يشتري . ولقد اهتم الزير الفرصة فكان يفترس من الذبح من بين هؤلاء الجناة من يراه أهلاً لحمل السلاح حتى اجتمع له نحو خمسين رجلاً اعتقهم من ذلك المصير المرعب فضمن بذلك ولائهم المطلق له ثم زودهم بالسلاح بعد أن دربهم على استعماله وبهذا كوّن النواة الأولى لجيشه ، وبهذا الجيش مع من دخل في خدمته من أهل البلاد حارب الزير الملك ، تسكمة ، والملك ، دوية ، والملك ، شكو ، وكان هؤلاء من أقوى ملوك

القبائل في تلك المنطقة فما كاد يفرغ من هزيمتهم حتى دان له باقي الملوك بالطاعة والولاء واستتب له الأمر في منطقة مترامية الأطراف في حوض بحر الغزال فلم يلبث أن اتخذ من «باية» وهي التي عرفت بعد ذلك باسم «ديم الزبير» عاصمة له يدير منها شئون مملكته المتزايدة النمو ويستقبل فيها أفواج الناس ورؤساء القبائل الذين يقبلون الانضمام إليه (١).

• • •

أظهر رابع في خدمة جيش الزبير من الموهبة الحربية ما لفت إليه أنظار ذلك الرجل الذي كان يعرف حقا كيف يختار الرجال والذي لم تخطيء فراسته أبداً في الحكم على مواهب من حوله من الأتباع.

وكان الزبير إبان زيارته للمناطق الواقعة غرب بحر الغزال قد التقى هناك بكثير من العبيد الذين آثروا الفرار من أسيادهم في بلاد الكلكلة ودار التعايشة وغيرها من المناطق وأقبلوا نحوه يطلبون الأمان، ولما كان الزبير في حاجة إلى إعادة تكوين جيشه الذي استهلك نواته الأولى قتاله مع القبائل المحيطة به، لذا فقد اختار من بين هؤلاء العبيد حوالي الستمائة من الرجال الأشداء وزودهم بالسلاح والذخيرة وأسند قيادتهم لرابع وهو

---

(١) كتاب «العاج الأسود» لمؤلفه هـ. جاكسون صفحة ٣٠

لما يزل شابا في نحو الثالثة والعشرين من عمره والذي كان بلاؤه  
واخلاصه ومقدرته الفذة في تأديب العصاة من رجال القبائل  
الخبيثة بأمالك الزبير قد أسرع في الصعود به درجة أثر درجة ،  
وأهله ولما يمضى على النجاحه بجيش الزبير أكثر من عامين لأن  
يحتل من قلب الزبير مكان الابن تماما حتى أنه لم يتردد في النهاية  
في إعلان تبنيه لهذا الفتى الشاب الذي يحذق فنون القتال حذقا  
غريبا وضمه إلى أسرته (١) .

أخذ جيش الزبير بعد ذلك ينمو في سرعة عجيبة ويتزايد عدده  
بمن يقبلون للتطوع فيه من أهل البلاد كما قدمنا ، وهكذا عندما  
أعرضت قوة الزبير الحربية لأول خطر جدى صادفته ممثلا في  
حملة البلالى الذى أرسله خديوى مصر إسماعيل باشا كان جيش  
الزبير عندئذ قد بلغ حوالى الأربعة آلاف رجل أبقاهم الزبير  
تحت قيادة قوادهم وزعمائهم أنفسهم وإن كان الجميع بعد ذلك  
يخضعون فى النهاية للقيادة العليا التى أسلمها إلى راجح دون أن يندم  
على ذلك يوماً واحداً فيما بعد .

\* \* \*

(١) كان من عادة الزبير أن يتبنى الأفراد من أهل الجنوب ممن يظهرون حذقا  
ومواهب ممتازة وينزلهم من نفسه منزلة الأبناء . ولقد تبنى إلى جوار راجح ، ورجب  
الزبير من مواليد بحر الغزال وقد الحقه عند حضوره إلى مصر بخدمة البوليس المصرى  
حتى بلغ رتبة معاون إدارة مركز نلا وتوفى بمصر . كما تبنى على فائق الزبير الذى  
صاحبه فى منفاه بجبل طارق وتوفى وهو ما زال طالبا بالسنة النهائية بالكلية الحربية  
بالقاهرة ، وغيرهم .

قلنا أن الزبير في أوائل عهده بحكم تلك البلاد التي دانت له  
بحد السيف قد تعرض لخطر جدى ممثلا في حمة البلالى . والبلالى  
هذا كما قال عنه المستكشف الألماني الدكتور جورج شفاينفورت  
في كتابه « في قلب أفريقيا » رجل أفاق استطاع أن يخدع خديوى  
مصر وأن يضلل حكومته عن حقيقة الوضع في بحر الغزال  
لتضمه على رأس قوة توجه لاحتلال « حفرة النحاس » وهي  
بلدة تقع على شواطئ بحر الغزال واستغلال مناجم النحاس بها  
لحساب الحكومة المصرية . وكان لا بد لهذه القوة إن آجلا أو  
عاجلا أن تصطدم بقوة الزبير بوصفه الحاكم الفعلى لتلك المنطقة (١) .  
ولسكن الزبير لم يكن في نيته على أى حال أن يقاوم الحكومة  
المصرية فعمد في أول الأمر إلى تسهيل مهمة البلالى ومدته بكافة  
المساعدات التي تعينه على تنفيذ أهداف حملته غير أن البلاكى هذا  
لم يلبث أن تجاوز حدود مهمته فمضى يؤلب التجار على الزبير ويكبد  
له ويحرض القبائل ضده فكان لا بد للزبير في النهاية من أن يصطدم  
بالبلالى اصطداما مباشرا اتاح له أن يجرب قوته الحربية ومقدرة  
قائده الشاب زابح في معركة حقيقية لأول مرة ضد جنود نظاميين .  
نشبت الحرب إذن بين الزبير والبلالى بعد فترة من المهادنة  
لم تدم طويلا . . وكانت قوات البلالى تتألف من أربعة آلاف

(١) « في قلب أفريقيا » مؤلفه جورج شفاينفورت الجزء الثانى صفحة

جندى نظامى مزودين بالعتاد والذخيرة <sup>(١)</sup> أما راجح القائد الاول لجيش الزبير فقد كان متغيبا فى تلك الفترة فى مهمة بعيدة .

وبعد عدة مناوشات متفرقة التحم الزبير بالبلالى فى اول معركة جدية عند أسوار عاصمته ، ديم الزبير ، لم تلبث أن انتهت بارتداد البلالى إلى « دار موفيو » بعد أن كبد قوات الزبير خسائر جسيمة وبعد أن أصيب الزبير نفسه بجرح خطير فى قدمه اليمنى عاقه عن مطاردة البلالى واضطره إلى العودة إلى عاصمته محمولا على اكتاف رجاله .

مضى البلالى بعد ذلك يتحصن فى « دار موفيو » ويعيد تنظيم قواته استعدادا لمعاودة الهجوم على الزبير الذى كانت حالته الصحية قد بدأت تسوء سوءا بالغا من جراء الجرح الذى أصيب به حتى لقد باتت حياته يتهددها خطر الموت تهديدا بالغا . فى هذه المرحلة الحرجة عاد راجح من مهمته البعيدة إلى « ديم الزبير » ليجد ريبه وقائده على هذه الحال من السقم ، والعدو متربص بهم مستعد للانقضاض عليهم فكان عليه عندئذ أن يحمل العبء بمفرده وأن يخوض معركة حياة أو موت ضد البلالى وهى المعركة التى كان يتوقف على نتائجها تقرير مصير الملك الذى أقامه الزبير فى تلك المنطقة والى

---

(١) راجع كتاب « العاج الأسود » صفحته ٤٠ . وكتاب ( تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ) تأليف نعوم بك شقير صفحته ٦٧ .

يعتبرها المؤرخون بحق نقطة البدء في سلسلة الانتصارات الحربية والسياسية التي أحرزها الزبير بعد ذلك في جنوب السودان .  
التقى راجح بالبلالي عند ديم جيجو ، بالقرب من دار موفيو وكان الأخير قد بدأ سيره لمعاودة الهجوم على ديم الزبير .  
ونشبت المعركة بينهما في فجر يوم من أيام إبريل عام ١٨٧١ فلم تلبث أن دارت الدائرة على البلالي بعد قتال مرير كلفه حياته وأوقع بقواته هزيمة ساحقة قضت عليها نهائيا ..

وقفل راجح ، القائد الشاب الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، عائداً إلى ديم الزبير بهذا النصر الرائع الذي دفع حكومة الخديوي بعد ذلك إلى قبول الأمر الواقع والاعتراف رسمياً بوضع الزبير القائم في منطقة بحر الغزال كحاكم وسيد لها ، والذي لم يلبث أن ذاع في أرجاء السودان كله فدعم مركز الزبير ومقدرة قائده راجح تدعيماً رائعاً حتى أنه لم يكفد يمضى على هذا النصر عام واحد حتى كان للزبير جيش يبلغ تعدادة حوالي الأثنى عشر ألفاً وعلى رأسه نفس القائد الشاب راجح الزبير ..

\* \* \*

كيف اتفق للزبير أن يترك القيادة العليا لجيش ضخم كهذا لم تشهده أصقاع الجنوب من قبل لشاب يافع كراجح في الوقت الذي كان فيه هذا الجيش يضم بين أركانه رؤساء للقبائل وملوكا حنكهم التجارب يكبرون راجح بعشرات السنين . ؟



للإجابة على هذا السؤال يجدر بنا أن نقف قليلاً لنفصل  
بعضاً من جوانب السياسة التي كان ينتهجها الزبير في حكم تلك البلاد  
وقيادة شعبها .

كان الزبير حريصاً دائماً، وهو الذي وفد إلى تلك البلاد قادماً  
من الشمال ، على أن يفهم أهلها تماماً أنه لم يبعثها غازياً أو فاتحاً . .  
فالجيش الذي التف حوله كان كله من أهل تلك البلاد أنفسهم ،  
وقواده من بين رؤسائهم وملوكهم وهو وإن كان قد تحالف مع  
هؤلاء الملوك والرؤساء وضمهم إلى جيشه إلا أنه لم ينس أنه قد  
سلبهم سلطانهم المطلق على رعاياهم وأن محاولاته نشر الأمن في  
تلك الربوع ، وإشاعة العدل بين الرعايا هي في الواقع أضعاف  
غير مباشرة لتنفيذ هؤلاء الرؤساء القائم على السلب والاعتصاب .  
لذا فقد كان طبيعياً عندما يفكر الزبير في إسناد قيادة جيشه  
العليا لواحد من أبناء البلاد أن يتخطى هؤلاء الكبار وأن يختار  
لذلك راجح ، ابن الجنوب البكر ، لا لأن راجحاً هذا كان  
أسيراً عنده مقرباً إلى نفسه كما قد يتبادر إلى الظن ، فالزبير  
لم يكن أبداً ممن يسمحون للمواطنين أن تفسد عليهم خططهم ،  
وإنما لأن راجحاً كان إلى جوار مواهبه الحربية التي مرن  
عليها منذ فجر صباه يمثل بالنسبة للعهد الجديد الذي أراد أن  
يقيم الزبير في بحر الغزال : التطور الجديد والفكرة الجديدة  
والعزم الجديد . . . ولكي نزيد هذا الكلام وضوحاً نقول أن

الزبير كان يريد أن يخرج بالبلاد التي أسلمته زعامتها من الطور القبلي الذي كانت تعيش فيه إلى طور الأمة الموحدة التي يسودها عهد جديد يعم فيه الرخاء عن طريق ازدهار التجارة ويزدهر فيه نور العلم بين الجميع مع انتشار نور الاسلام بينهم . فالزبير كان تاجراً وهو لم ينس هذه الصفة حتى بعد أن أصبح حاكماً وسلطاناً وكان من المستحيل أن تزدهر التجارة وأن تكون بلاده ملتقى لطرق التجارة الآمنة إلا إذا حقق أهدافه هذه . وكان لا بد له لتحقيقها من القضاء على سلطة رؤساء القبائل الذين تتعارض مصالحهم البدائية مع هذا الهدف البعيد .

واقدم أثبت راجح في ذلك الزمن القصير الذي انقضى على النجاحه بخدمة الزبير من المواهب العسكرية ما أهله ليكون الساعد الأيمن للزبير في تنفيذ سياسته هذه فكان طبيعياً أن يقربه إلى نفسه وأن يطلق يده في قيادة الجيش الذي كان يعول عليه في تحقيق أهدافه .

ولقد تعلم راجح في كنف الزبير الشيء الكثير عن حكم الشعوب وعن قيادتها حتى لتعتبر تلك الفترة من حياته التي قضاهها محارباً تحت الوية الزبير المدرسة الحقيقية التي أعدته فيها الأقدار بنجاح لكي يلعب الدور الذي كان ينتظره في ممالك برنو ووداي وعلى شواطئ بحيرة تشاد بعد ذلك . ولعل راجحاً بذلك يكون مدينا

الزبير بكل ذلك النجاح الذي قدر له أن يلقاه فيما بعد وإن كان هذا لا ينقص من قدر رابع شيئاً كما لا ينقص من قدر الزبير هو الآخر أنه يعتبر مدينا لرابح بالكثير من فتوحاته وانتصاراته .

وسوف نرى في الفصول القادمة كيف سار رابع في حروبه ضد الاستعمار الفرنسي للسردان الوسطى ، وفي محاولة تكوين امبراطورية تصمد للفتح الفرنسي وتجمع بين القبائل المتناثرة حول بحيرة تشاد وسواحل نهر شارى في أمة موحدة ذات كيان واحد ، سوف نرى في تفاصيل ذلك كاه كيف كان رابع يحاول أن يطبق خبرته التي اكتسبها في حروبه تحت لواء الزبير وأن يسير على نهج سياسته التي تركت في بحر الغزال تاريخاً جيداً لنشأة القومية وظهورها .

• • •

سار رابع ، بعد معركة البلالي ، تحت لواء الزبير ينتقل معه من نصر إلى نصر ويستكمل تجاربه في الحرب والسياسة خطوة بعد خطوة ، ويهزم مع ربيبه قوائم ملكة دارفور تلك الثمرة الشهية التي فتح الطريق إليها باخضاع عرب الرزيقات أولاً ، ثم باحتلال «شكا» ثانياً ، حتى نضجت الثمرة في النهاية واستطاع الزبير بجيشه المظفر الذي كان رابع ، وهو لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره ،



وبعودة الزبير من غزوة ودّأى هذه بدأت أيامه في السودان  
تقرب سريعاً من نهايتها إذ لم يلبث أن دعى إلى القاهرة لمقابلة  
خديوى مصر ، وجاءت هذه الدعوة في الواقع نتيجة للمؤامرات  
والدسائس التى نسج خيوطها اسماعيل أيوب حاكم السودان وقتئذ  
الذى أراد أن يتخلص من نفوذ الزبير في السودان بإبعاده عنه .  
واستجاب الزبير إلى دعوة القاهرة بالرغم من معارضة راجح  
لها ومحاولة ثنيه عنها فكان هذا إيذاناً بانتهاء تلك الحقبة الهامة  
من حياة راجح التى عاشها تحت لواء الزبير إبنائه ، وقائداً لجيوشه  
وتلميذا يأخذ عنه دروس السياسة والحرب فيعبرها في ذاكرته  
ليوم قريب ..

رحل الزبير إذن عن السودان فبلغ القاهرة في أوائل عام  
١٨٧٥ حيث احتجزته الدسائس والمؤامرات فلم يقدر له أن يرى  
راجحاً بعد ذلك وإن كان لم يغفل يوماً عن متابعة أخبار فتوحاته  
في الغرب وكفاحه المجيد هناك ضد الاستعمار الفرنسى .

\* \* \*

جاء فى مذكرات الزبير<sup>(١)</sup> عن حوادث عام ١٨٩٦  
الفقرة التالية :

« ... حدث فى هذا العام أن زارنى سرأ وفى بهيم الليل

---

(١) راجع كتاب «الزبير باشا رجل السودان» للدؤاف صفحة ١٤٥-١٤٦ .

بعض كبار الفرنسيين من أصحاب النفوذ في بلادهم وبقوا معي إلى ما بعد منتصف الليل بساعتين يحاولون إقناعي بأن أسعى لعقد اتفاق بينهم وبين راج قاندى القديم الذى كان قد أبى التسليم لجيسى مع ابني سليمان ومضى نحو الغرب بألف من الرجال المسلحين إلى أن وصل برنو ففتحها وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته دكوة جنوبى بحيرة تشاد إلى أن دخلت برنو هذه في نطاق نفوذ الفرنسيين فجردوا عليه جيوشهم ولكنه كان ما يزال القائد الذى سار تحت لوائى من نصر إلى نصر فهزم هذه الجيوش فى أكثر من معركة دامية. ولهذا التجأوا إلى طالبين أن أستعمل نفوذى لدى راج لايقاف هذه الحرب ولأطلب منه الانسحاب من برنو وعرضوا علىّ فى مقابل هذا المبالغ الطائلة مع استعدادهم لتنفيذ كل ما أطلبه منهم .. غير أنى رفضت عروضهم هذه .. كنت قد نفقت يدى من أمور القتال وما يجرى بالسودان منذ مصرع ابني سليمان وإن كنت قد أحسست لذكر راج وأنباء الحروب والغزو بريخ حزينة ناعمة تهب فى صدرى وتسوق لى مواكب الماضى وذكريات أعوام طويلة قضيتها بين رائحة البارود وهتاف النصر وأناشيده...

## ضد الاستعمار الانجليزى

« سليمان يواجه دنس الاستعمار —  
غوردون يترس بثرات الزبير — روميللو  
جيسى — كفاح سليمان — عند سفح  
جبل مرعى — خديعة روميللو — راج  
يفادر السودان — حقيقة الرجل الأيسر »

لم يكد الزبير يفادر السودان حتى بدأت منطقة بحر الغزال  
تشهد أحداثاً من لون جديد تهدف إلى القضاء على ذلك التراث  
الضخم الذى أقامه الزبير وخلفه وديعة فى يدا بنه سليمان وقائده راج..

وكان سليمان الزبير ، الذى خلف أباه فى حكم مديرية بحر  
الغزال ، حدثاً لم يتجاوز بعد الواحدة والعشرين من عمره عندما  
بدأ يواجه مؤامرات غوردون الذى كان قد عين حاكماً عاماً  
للسودان خلفاً لاسماعيل أيوب والذى لم يأل جهداً منذ اليوم  
الأول لتعيينه هذا فى التمهد للاستعمار الانجليزى وفى خلق  
الظروف والأحداث التى يستطيع فى زحمتها وتناقضها أن يمكن  
لقبضة الاستعمار من الالتفاف فى خسة ودناءة حول عنق ذلك  
الجزء من الوادى .

بدأ غوردون مؤامراته بالتطلع إلى القضاء على تلك القوة الحربية الضخمة التي أقامها الزبير في منطقة بحر الغزال والتي كانت لا تزال تجتر في نشوتها بما أحرزته من انتصارات باهرة نتائج الوثبة التي نقلها إليها حكم الزبير وزعامته الشعبية . وكان طبيعياً ألا يسكت غوردون ، وهو كما قدمنا طليعة النفوذ الانجليزي الذي كان قد بدأ يحكم مصر ويتطلع لحكم السودان ، عن هذه القوة أو يطمئن إلى وجودها . فان جيشا يبلغ تعداده الاثنى عشر ألفاً ويدين بالولاء لسليمان الزبير الذي ورث نفوذ أبيه في تلك المنطقة كان يعتبر خطراً حقيقياً على أطماع الانجليز كما اعتبر من قبل خطراً بالغاً على أطماع الحكم التركي الفاسد الذي كان يمثله اسماعيل أيوب والذي من أجله أبعد الزبير عن السودان واحتجز في القاهرة .

بدأ غوردون في تنفيذ مؤامراته بتفريق جيش سليمان واخضاعه لقيادات متعددة جعل عليها أعوانه من الأتراك والخوذة (١) تاركاً سليمان بلا جيش أو رجال حاكماً على مديرية بحر الغزال . وقابل سليمان كل هذا بالسكوت فقد كان أبوه محجوزاً في القاهرة كرهينة وكانت أية معارضة من سليمان كفيلاً على الأقل

---

(١) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته • تأليف نوم بك شلبر



بأن تخرج مركز أيبه فى القاهرة إن لم تكلفه حياته كلها . ولكن غوردون ما كاد يطمئن بعد ذلك إلى تجريد سليمان من كل قوة حتى أقدم على الخطوة التالية فعزله وعين بدلا منه إدريس أتر ، وهو أحد الدناقة الذين اشتهروا بعدائهم للزبير ، حاكما على مديرية بحر الغزال .

عندئذ لم يكن هناك بد من أن يتحرك سليمان للدفاع عن نفسه وعن كيانه ضد تلك المؤامرة المحبوكة . وكان هذا هو كل ما يهدف إليه غوردون فى النهاية . إذ ما كاد سليمان يهب بقواته طارداً إدريس أتر من بحر الغزال ، ضارباً عرض الحائط بتعيين غوردون له ، حتى مضى الأخير يملأ الدنيا صياحاً بما أسماه ثورة سليمان على الحكم المصرى ، بما مكنته فى النهاية من أن يسير ضده حملة حربية بقيادة أفاق إيطالى يدعى روميلوجيسى للقضاء نهائياً على كل ما بقى للزبير من قوة وتفوذ فى تلك الأصقاع .

ولكن ما هو دور راجح فى كل هذه الأحداث .؟

إن دوره فى الواقع منذ أن رحل الزبير إلى القاهرة إلى أن استسلم سليمان لقوات جيسى ليبدو للمحقق التاريخى غامضاً إلى حد بعيد . فنحن لا نعرف شيئاً على وجه التحديد عن جهود راجح فى تلك الحقبة من تاريخه . والظاهر أن راجحاً ، بسفر الزبير إلى القاهرة ، قد فقد الكثير من نفوذه فى جيش سليمان ، بل لسنا

نستبعد أن يكون سليمان قد أقصى راجحاً عن القيادة وقرب إليه غيره من القواد فقد كان سليمان صغير السن قليل الخبرة ، وتفاصيل المعارك التي نشبت بينه وبين جيسى وإن كشفت عن كفاح مستبسل ضد الاستعمار الانجليزي ، إلا أنها لا تخلو من



سليمان الزبير يقود أسراه من رجال جيسى وأعوانه  
أخطاء حرية ما كانت لتقع أو تكلف سليمان حياته فيما بعد لو كان  
قد استمع إلى رأى قائد كرايح تمرس بالحرب وحنكته المعارك

إل حد بعيد واكتسب من الخبرة بالأعيب السياسة أبان اتصاله  
بالزير ما لم يتع لسليمان نفسه أن يكتسبه من أيه .

\* \* \*

ولقد حدث بعد عدد من المناوشات بين قوات سليمان وجيسى  
تأرجح فيها النصر بين المسكرين دون الوصول إلى نتيجة حاسمة  
أن التقت القوتان عند سفح جبل مرعى حيث كان سليمان قد  
تحالف مع هارون والصباحى من أمراء دارفور في ثورتها ضد  
نفس الاستعمار ونفس فساد الحكم التركى .. وكانت قوات سليمان  
تختزن في أعماقها حقدأ هائلا على ذلك الرجل الذى جاء غازيا  
مستعمراً ، وكانوا يعلنون أنهم يقاتلون في معركة حياة أو موت ،  
وكان سليمان نفسه عازماً على أن يقضى على عدوه في تلك المعركة  
قضاء مبرماً ، أما راجع فقد كان يقود فرقة من البازنجير وهم خيرة  
جنود سليمان الذين ظلوا مع قائدهم راجع على ولائهم لسليمان  
في الوقت الذى كان قد انفض فيه كل من حوله من الانصار .  
استمرت المعركة طول اليوم عنيفة قاسية وابل البازنجير  
في ذلك اليوم بلاء مجيداً حتى اعتبرت تلك المعركة بحق من أسمى  
ما نشب بين سليمان وجيسى من معارك <sup>(١)</sup> ولم يلبث جيسى في آخر

---

(١) كتاب «سبع سنوات في السودان المصرى» لمؤلفه رويلى جيسى ص ٢٣٠

النهار أن ارتد مدحورا عن موافقه وقد بدأت تلوح في الأفق  
بوادر انهزامه حتى أنه لم يفكر في اليوم التالي في أن يعاود الكرة ،  
بل أرسل يطلب إمدادات جديدة ويستميل من حوله قبائل  
الرزاقات العربية التي لم تكن قد نسيت بعد ما أصابها من هزيمة  
على يد الزبير نفسه .

في هذه الفترة الحاسمة التي كان من الممكن أن تشهد اندحاراً  
تاماً لقوات جيسى يقضى على أطماع غوردون وصلت سليمان  
رسالة من أبيه في القاهرة قلبت ميزان الأحداث وغيرت  
مصير سليمان وراجح تغييراً تاماً . . فقد كان من الواضح أن  
ثورة سليمان قد أضرت بمركز الزبير الأدبي في القاهرة ضرراً  
بليغاً حتى لقد نبئت الشائعات بأن الزبير نفسه هو الذي حرّض  
ابنه على الثورة انتقاماً لحجزه في مصر بما أجبر الزبير ، وهو الذي  
كان يعيش كالأسير في بلاط خديوى مصر على أن يكتب لابنه  
تلك الرسالة التي ينصحه فيها بالكف عن الحرب وبتسليم نفسه  
إلى غوردون مذكراً إياه بواجب الخضوع لحكومة  
الخديوى السنية (١) . ١١ .

وعملت الرسالة عملها الذي أريد لها أن تعمله فقد انقسم  
بمجيئها معسكر سليمان إلى فريقين : فريق ينادى بالتسليم والاستجابة

(١) كتاب « الزبير باشا رجل السودان » للمؤلف . ص ١٣١ .

لصح الزير وعلى رأسه سليمان نفسه ، وفريق آخر كان على رأسه رابع بنادى بالاستمرار فى القتال خاصة وان ذكرى انتصارهم القرية على جيسى ما زالت حية فى أذهانهم .

وكان رابع بعيد الفكر ثاقب النظر فهى سليمان عن التسليم لجيسى قائلا له (١) :

« لقد ناوت جيسى فلا تتوقعن منه عفوا إذا صرت فى قبضته . أما أنا فيؤسفى الانفصال عنكم بعد أن شاركتكم فى السراء والضراء هذه السنين الطوال ولكنى لا أسلم نفسى لجيسى لأن الدناقلة يحيطون به ، وهو مطواع لهم وأنت تعلم ما بيننا وبين الدناقلة من عداوة قديمة . وإنى لأشير عليك بالذهاب غربا وفتح بلدان جديدة . . . . »

ولكن سليمان لم يستجب لهذا الرأى ، وانتصر فى النهاية رأى الفريق القائل بالتسليم فلم يجد رابع مناصا عن الانفصال بقواته والاتجاه بها نحو الجنوب . أما سليمان فإنه لم تكذب تشرق شمس ١٤ يوليو ١٨٧٩ حتى سلم نفسه لجيسى الذى لم يلبث بعد أن أمنه على نفسه أن قتله غدرا وغيلة هو وثمانية من أهله .

---

(١) كتاب « حقائق الأخبار عن دول البعارة » تأليف اسماعيل سرهنك باشا . الجزء الثانى ص ٣٣٥ .

وهكذا سقط سليمان وهو يدافع عن بلاده . . سقط كما سقط  
الأبطال بعد أن أدى دوره في مجاهدة الأفاقيين الأجانب من أمثال  
غوردون وجيسى الذين كانوا يتصرفون لحساب دولهم وأطباعهم  
وإن حرصوا على الظهور بمظهر المنفذين لسياسة مصر  
وخدبوى مصر . .

\* \* \*

كان هذا هو أول احتكاك رابع بالاستعمار الأوروب .  
ولقد تلقى رابع من هذا الاحتكاك الدرس الأخير في سلسلة  
الدروس التى تلقاها فوق أرض الجنوب . ولقد قدر له بعد ذلك  
أن يكافح الاستعمار الفرنسى لفترة من الزمن طالت حتى بلغت  
عشر سنوات كاملة فلم ينس غدر المستعمرين وخستهم فى القتال  
كلما ذكر أخاه سليمان وأعمامه الذين شاركهم سنين السراء والضراء  
وكيف قتلهم جيسى بعد أن استسلموا له وأصبحوا أسرى  
ممزولين عن كل سلاح . . ولعل رابع لم يكن فى حاجة إلى أكثر  
من هذا لىكى تمتلئ نفسه بالقسوة والحقد على هؤلاء الأجانب ،  
وكأنى به بعد ذلك وهو يقتل فى غير شفقة أو رحمة كل من وقع  
فى يده من رسل الاستعمار الفرنسى ورجاله أمثال كرامبل ،  
وبهاجل ، وبريتونيه ، وفورولامى ممن سيأتى ذكرهم بالتفصيل ،

إنما ينتقم سليمان وأعمامه من اغتالهم الاستعمار الانجليزى  
فى خسة وغدر . .

وثمة شىء آخر . .

لقد كشفت تلك المعارك الطويلة التى خاضها رابح إلى جوار  
سليمان ضد جيسى ، كشفت لذلك الرجل الذى نشأ فى أصقاع  
الجنوب بين قبائل تعيش على حال من البداوة الأولى عن حقيقة  
الرجل الأبيض ، وعن حقيقة الاستعمار ومؤامراته ، وكيف  
يتسلل فى ثوب الحمل ليقبض على عنق الشعوب بمخالب الذئاب .  
ولقد كان رابح حقاً فى حاجة لأن يعرف كل هذا حتى لا تنطلى  
عليه خدعة أولئك المستكشفين الفرنسيين الذين انطلقوا فى أواخر  
القرن التاسع عشر يمدون باسم العلم ، وباسم المدنية لذلك الغزو  
البربرى الذى منيت به أفريقيا أو القارة السوداء كما كانوا يسمونها  
وكما سيطالع القارىء فى الفصول القادمة .

## رابع... والحركة المجدية...

» رابع بتجه نحو الجنوب - شهرة رابع تبلغ  
المهدى - دعوة المهدي لرابع - وفاة المهدي -  
رابع وعبد الله التمايشي - السيد السنوسي -  
رابع بصاهر السنوسي «

اتجه رابع ومعه حوالى الألف من رجال البازنجى المسلحين  
بنحو أربعائة بندقية نحو الجنوب بعد انفصاله عن سليمان الذى  
فصلنا ظروفه فى الفصل السابق . وهناك بين القبائل التى تعيش فى  
تلك المنقطة بدأ رابع حياة جديدة لحسابه الخاص إن صح هذا  
التعبير . . فقائده الأول ، الزبير ، أسير فى القاهرة . وسليمان ،  
صديقه وأخوه ، قد راح ضحية غدر جيسى ونكته باليهود .  
وبلاده التى نشأ فيها وأحبها قد أجلاه عنها مستعمر غاصب . وذلك  
الجيش الكبير الذى تولى قيادته حقة طويلة من الزمن قد تناقص  
وانكش تحت ضربات الأحداث فلم تبق منه غير تلك الفرقة  
المخلصة الوفية من رجال البازنجى .

كانت كل الأسباب إذن قد قطعت بين رابع وماضيه نهائياً . .



وألقت به إلى هذه الحياة الجديدة وكأنما قد طوت صفحة لتدشر  
أخرى جديدة في سطورها ، مهمة كذلك المجهول الذي يتربص  
به في تلك المناطق التي تقطنها قبائل وثنية معادية لم تلبسها بعد يد  
الدين أو التحضر اللذين عرفهما رابع في حوض بحر الغزال .  
ولكن رابحا لم يستسلم مع ذلك لوحشة المجهول الذي ألقت  
به الظروف بين أحضانه ، بل نشط إلى مزاولة حياة الحرب والقتال  
التي تعيش في دمه ، فمضى يخضع القبائل ، ويغزو البلاد الواقعة  
على حدود دارفور الغربية ناشرا خلفه الدين الاسلامي ، معليا  
لواء زعامته الناشئة المنوثة حتى أقبل عام ١٨٨٥ فاذا اسمه قد بدأ  
يدوى في تلك الأصقاع وينتشر كموجات من الماء في بحيرة ساكنة  
حتى تلتفته في النهاية أذنا محمد احمد المهدي الذي كانت قواته تدك  
في ذلك الحين أسوار الخرطوم وترسل في سماء السودان أول  
صيحة للتحرر الوطني ضد الاستعمار الانجليزي والفساد التركي ..  
بلغت شهرة رابع إذن إلى آدان المهدي فتاق إلى أن  
يضمه إلى صفوفه ليكسب لدعوته قائدا لا يجيد فنون القتال  
إجادة نامة فحسب ، وإنما بينه هو الآخر وبين الاستعمار  
الانجليزي والفساد التركي ثار قديم فأرسل إليه رسولين  
الأول يسمى زين العابدين والثاني يدعى جبار حاملين

اليه دعوته للانضمام اليه . والواقع أن حركة المهدي لم تكن حركة دينية متعصبة كما رماها بذلك الاستعمار الانجليزي ليؤلب ضدها كل العناصر وكما أراد لنا دائما أن نفهمها . وبالرغم من أن تتبع هذه الحركة والعوامل التي أدت إلى نشأتها مما يخرج عن نطاق كتابنا هذا إلا أننا لانملك هنا إلا الوقوف أمام دعوة المهدي لرابح ، ودعوته في نفس الوقت للسيد محمد المهدي السنوسي ليكون خليفته الثالث وهو الذي كان يبسط نفوذه في ذلك الحين على طرابلس وودّاي ومناطق السودان الغربية . هاتان الدعوتان تظهران بجلاء رغبة المهدي في أن يجمع كل الصفوف ، وأن يوحد كل الجهود نحو هدف واحد هو تطهير السودان من كل غاصب أو دخيل مستعينا في سبيل ذلك بكل القوى والامكانيات مما يخرج بدعوته عن نطاق الذاتية المتعصبة إلى نطاق القومية الواسعة التي تهدف إلى خلق وطن حر موحد .

ولقد رحب رابح بالانضمام إلى المهدي . . ربما لأنه وجد فيه بديلا عن قائده الأول ، الزبير ، الذي لم تلبث المؤامرات ان نفتته إلى جبل طارق لتبعده به عن نطاق حوادث الحركة المهدية . . بديلا يستطيع أن يعكس ما كانت تغلي به البلاد في ذلك الحين من عوامل السخط والثورة . . أو ربما رحب بذلك الانضمام ليغسل بدم غوردون ذكرى مقتل سليمان . على أية حال فقد كان رابح

سريعاً إلى الترحيب بتلك الدعوة وإلى تليتها فما كاد يصل إليه رسول المهدي حتى بدأ يتحرك بقواته للانضمام إليه غير أنه ما كاد يبلغ حدود دارفور الغربية حتى بلغه موت المهدي في ٢٢ يوليو ١٨٨٥ وتولى عبد الله التعايشي الزعامة من بعده . عندئذ كان على رابع أن يقف قليلاً ، وأن يراجع موقفه من الحركة المهدية بعد هذا التغيير الذي قفز بعبد الله التعايشي إلى منصب الزعامة الأول . وكان بين رابع وعبد الله التعايشي هذا تاريخ قديم .

فقد حدث أثناء حرب الزبير مع عرب الرزيقات أن وقع في الأسر فقيه من فقهاء التعايشة يدعى عبد الله ود محمد آدم تورشين ، وكان الرزيقات قد استخدموه ليقرأ لهم الأسماء في خلوته لعلها تقبض على سلاح الزبير فلا يطلق ناره في ساحة الحرب وتمهدوا له في مقابل هذا ببقرة حلوب فلما وقع هذا الفتي في الأسر لم يتردد الزبير في الأمر باعدامه .

وكان مع الزبير في ذلك الوقت اثنا عشر عالماً من علماء الدين وقد جعلهم يقسمون له على القرآن الشريف بأنهم إذا رأوا منه في أحكامه اعوجاجاً عن الشرع ينبهوه إليه . فلما أمر باعدام ذلك الرجل ، الذي عرف فيما بعد باسم عبد الله التعايشي ، اعترض هؤلاء العلماء بحجة أن الشرع لا يجيز له قتل أسير من أسرى الحرب فضلاً عن أن حسن السياسة ينكر على الزبير إعدام رجل

يعتقد الناس في صلاحه وطيبته . غير أن راجحاً لم يكن يرى هذا الرأي فعارض في الإبقاء على حياة عبدالله هذا بحجة أن اعتقاد العامة فيه واتجاره هو بالدين على هذا النحو قد يثير من الفتن ما يكشف مؤخرة قوات الزبير التي كانت منهمكة في ذلك الوقت في قتال مرير مع عرب الرزيقات .

ولكن الزبير فضل في النهاية أن يستجيب لرأي علمائه فترجع عن قتل أسيره الذي استطاع بعد ذلك ، عندما اشتهر أمر محمد احمد المهدي في جزيرة ، أباه أن يتصل به وأن يتقرب إليه حتى فاز بثقته ، فلما دان للمهدي حكم السودان عينه خليفة له إلى أن مات فبايع الناس عبدالله التعايشي هذا اماماً وحاكماً من بعده<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

توقف رابع إذن عند حدود دارفور عندما بلغه نبأ موت المهدي وتولى عبدالله التعايشي الزعامة من بعده .. وكان عليه أن يفكر مرتين قبل أن يقدم نفسه إلى الرجل الذي حرض الزبير يوماً على قتله والذي نادى بوضع حد لحياته ذات يوم منذ أكثر من عشر سنوات .

ولم يطل التفكير برابع إذ كان من الطبيعي عندئذ وبعد أن

---

(١) كتاب « تاريخ مصر في عهد المهدوي اسماعيل » تأليف الأستاذ الياس الأيوبي الجزء الثاني ص ٤٩ .

سارت الأمور على ذلك النحو أن يرفض الانضمام إلى الحركة  
المهدية خوفاً من انتقام عبدالله التعايشي فقرر الرجوع بقواته إلى  
اقليمه السابق ليعاود الغزو والفتح هناك ويضيف إلى ذلك اشتغاله  
بتجارة العاج والصمغ وريش النعام .

ونحن لا نستطيع هنا أن نجد أى اعتراض على قرار رابع  
هذا بعدم الانضمام إلى الحركة المهدية إذ أن عبد الله التعايشي لم  
يلبث أن بدأ عهداً من الارهاب فيمن حوله من القادة والاتباع  
فكان لا يتورع عن أن يلقي إلى السجن أو الموت كل من يخشى  
منه على مركزه أو زعامته وقد كان من المحقق أن يلقى رابع على  
يدين التعايشي مصيراً كهذا ..

\* \* \*

في هذه الفترة من حياته اتصل تاريخ رابع بزعيم ديني آخر  
هو السيد محمد المهدي السنوسي اتصالاً قدر له أن يلعب دوراً  
هاماً في حياة رابع وفي كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي بعد ذلك .  
والسيد محمد المهدي السنوسي هذا هو ابن محمد بن علي السنوسي  
مؤسس الطريقة السنوسية التي يدين بها معظم القبائل التي تقطن  
الصحراء الليبية . وقد قام بعد وفاة أبيه بنشر طريقته ومعه أخوه  
السيد محمد الشريف السنوسي جاعلاً من واحة جنجوب مركزاً له .  
وقد ازداد عدد المريدين للسنوسية على عهد محمد المهدي هذا!

أضعافا كثيرة وكان من بين من اتبعوه ملك ودای وجميع أهل  
ملكته وكان هذا الملك يجمع له الهدايا كل عام ويرسلها له مع  
رسل مخصوصين وبشاوره في جميع شئونه حتى أنه لم يكن يقطع  
أمراً دون مشورته (١) .

ولمحمد المهدي هذا زوايا كثيرة متفرقة في الحجاز والغرب  
والبادية وكان في كل زاوية خليفة من قبله يدير شئونها ويبايع  
الناس فيها بدلا عنه ويعلم فيها أولادهم القرآن ومبادئ العلوم .  
وكان هذا الخليفة ينشأ له زرع بمساعدة السالكين عنه ويقتني  
الماشية فيصرف من ذلك على الزاوية وما زاد يرسله إلى شيخه  
السوسى . وقد كثرت الزوايا بالبادية حتى صار دخلها عظيما وحتى  
صار محمد المهدي أشبه بملك يجبي إليه الخراج . وكان له مقام عند  
أهل طريقته أشبه بمقام الملوك . وكان أهل البادية لا يعرفون  
حاكما غيره ولا يخضعون للحكام إلا بواسطته بل كانوا يعتقدون  
أنه هو المهدي المنتظر وإن كان هو لم يعلن هذا أو يرده .

ولقد أرادت الدولة العلية إبان سيطرتها على طرابلس استدعاه  
إلى الأستانة فلما شعر بذلك رحل من جغبوب ونزل بالكفرة عن  
طريق ودای وبني له زاوية هناك وجعل منها مقراً له حتى  
آخر أيامه .

(١) « دائرة المعارف البستانية » المجلد العاشر ص ١٤٦ .

وفي الكفرة سمع السيد محمد المهدي السنوسي باخبار رابع  
وفتوحاته فكان طبيعيا أن يجد فيه حليفا قويا فانصل به عن  
طريق رجاله ولم يلبث هذا التحالف أن توج بزواج فتح الله نجل  
رابع باحدى كريمات السيد السنوسي وتدعى خديجة فزادت هذه  
المصاهرة في توثيق الصلات والاواصر بينهما .

ولقد كان السيد السنوسي شديد الكراهية للاجانب لا يسمح  
لهم أن يطأوا زاويته ، بل لا ينشطهم حتى على التجول في الصحراء  
في أرض زواياه ولا يجب أن يتدخل أحد من الاجانب في شئونه .  
وبمقتضى هذه السياسة الوطنية كان علي رابع ، بالاتفاق مع  
السنوسي القيام بمهمة حماية تلك البلاد من تسرب بعثات الفرنسيين  
اليها . وعلى هذا الأساس اقتنع رابع في عام ١٨٩١ بعثة بول  
كرامبل عند بلدة « الكوتي » وقتل رئيسها فكان هذا بدء اصطدام  
رابع بالفرنسيين ، وهو الاصطدام الذي حمل رابع بعد ذلك  
عبئه على كتفيه طوال عشر سنوات كاملة لم ينكص أو يتراجع  
وإن كان السنوسي ، وكأنما قد خاف على نفسه مغبة هذا الصدام ،  
قد آثر أن يتنصل من مقتل كرامبل وأن يهادن الفرنسيين ويتبادل  
معهم البعثات تاركا رابحا وحده ، حليفه وصهره ، يواجه الموجات  
المتتالية من حملات الفرنسيين كما سنرى في الفصول القادمة .

أَمْ بِرِطْوَيْتِي رَابِحٌ



## رابع... وطلّاع الاستعمار لفرنسى

• الأرض البكر - ثلاث قوى - لجنة إفريقيا  
الفرنسية - بعثة بول كرامبل - موقف السنوسى

شهد العالم فى الفترة الواقعة بين أعوام ١٨٧٠ ، ١٩١٤ مرحلة تاريخية هامة نمت فيها الاحتكارات الرأسمالية نموا عالميا فى كل من فرنسا وانجلترا والمانيا نتيجة لنمو الصناعة وتقدمها فى تلك البلاد مع تركيز الأموال وأعمال البنوك فى أيدي عدد من المؤسسات الضخمة . وصاحب هذا النمو نشأة الاستعمار والتسابق الجنوبى إلى تقسيم العالم بين هذه الدول إلى مناطق نفوذ واسعة يمكن فيها تصريف منتجات الصناعة الأوروبية والحصول منها على المواد الخام والأيدي العاملة بأسعار زهيدة تزيد من أرباح الأموال المستغلة فى هذه المستعمرات .

وكانت إفريقيا فى ذلك الوقت بما يحوطها من غموض هى الأرض البكر التى يتطلع إليها الممولون فى كافة دول أوروبا، والمجال الطبيعى لتوسع الرأسمال الأوروبى فى بحثه عن أسواق جديدة وكانت فرنسا من أنشط الدول فى ارتياد مناطق تلك القارة وضم

أجزاء منها إلى امبراطوريتها حتى لم تكد أواخر القرن التاسع عشر تقبل حتى كانت هذه الامبراطورية تضم الجزائر ، ومدغشقر وداهومي ، وتومبكتو ، والسنغال وغرب أفريقيا حتى فاشودة ومنابع النيل وحتى كان تعداد سكانها يبلغ حوالى الخمسين مليوناً (١)

وكانت طريقة فرنسا فى احتلال تلك الأجزاء المختلفة من امبراطوريتها هى ارسال البعث العلية والتجارية التى تغزو البلاد تحت ستار التجارة والعلم وتعمل فى الوقت نفسه على عقد معاهدات واتفاقيات مع ملوكها ورؤسائها يخضعون بمقتضاها لنفوذ فرنسا وحمايتها . ولكن الطريق مع ذلك لم يكن سهلاً دائماً أمام تلك البعث فقد التى بعضها فى أغلب المناطق بوطنين أشداء وملوك وسلطين تصدوا لمقاومتها وردوها عن أبواب بلادهم فى سلسلة طويلة من المعارك الدامية (٢) .

ولقد كانت السودان الوسطى من أعصى تلك المناطق على الاستعمار الفرنسى . . فقد كان للسوسى نفوذ واسع بتلك الأصقاع ، وكان راجح قد بدأ يكون امبراطوريتها الواسعة ويجمع

---

(١) كتاب « نشأة الاستعمار الفرنسى » تأليف سيريل كلايدون (طبعة لورنس وويشارت) ص ٤٠ .

(٢) راجع الفصل الأخير فى هذا الكتاب عن « الاستعمار الفرنسى فى شمال وغرب أفريقيا » .

حول رايته القبائل المتناثرة حول بحيرة نشاد وشواطئ نهر  
شارى ، كما كان هناك الباجورميون وهم أفراد قبيلة واسعة النفوذ  
تقطن شرقى نهر شارى وتبسط سلطانها عليه . وبذا كان على  
البعثات الفرنسية الغازية أن تصطدم بكل تلك القوى وأن تحارب  
كل واحدة منها بالأسلوب الذى يضمن لها فى النهاية تحقيق  
أهدافها الاستعمارية .

ولقد استطاعت فرنسا أن تستميل السنوسى إلى صفها دون  
قتال . . وأن تمقّد معاهدة مع السلطان عبد الرحمن جورانج  
سلطان الباجورمين الذى كان يخاف على نفسه من قوة راجح  
النامية فكان طبيعيا أن يرحب بتلك المعاهدة التى تضمن له حماية  
فرنسا ضد ذلك العدو الناشئ . وبذلك استطاعت فرنسا تدريجيا  
أن تتخلص من قوتين سياسيتين فلم يبق أمامها من ند عنيد سوى  
راجح الذى أبى أن يفرط فى البلاد التى اتخذها وطنا ثانيا بعد أن  
غادر وطنه الأول ، وأن يتركها لتسقط فريسة فى أيدي المستعمرين  
الطغاة الذين كان يعرف عنهم وعن أساليبهم أكثر مما يعرف  
السنوسى أو السلطان جورانج . .

وقف راجح إذن وحده ضده الاستعمار الفرنسى ، وبالرغم  
من الخيانات التى كانت تعيش حوله وتحيط به ، والممثلة فى تحالف  
السنوسى والباجورميون مع فرنسا ، فقد استطاع أن يصمد

في كفاحه وقتاً طويلاً ، وأن يكبد الفرنسيين من الخسائر في القوات والأرواح ما لجأهم في النهاية إلى السعي لدى الزبير في القاهرة كي يتوسط لهم عند قائده القديم راجح بقصد إيقاف تلك الحرب كما قدمنا .

o o o

والآن فلنبداً القصة من أولها . . .

في حوالى نهاية عام ١٨٨٩ اجتمع في باريس عدد من الأشخاص يمثلون رجال الصناعة والمال في فرنسا ، وذلك لتكوين شركة تتولى تمويل عمليات الغزو والاستكشاف في مناطق أفريقيا الوسطى عرفت بعد ذلك باسم « لجنة أفريقيا الفرنسية » وجاء في برنامجها ما يأتى :

« نحن الآن في اجتماع فريد في التاريخ إلا وهو تقسمة قارة لا يعرفها إلا عدد بسيط من دول أوروبا المتمدنية .

ولفرنسا في هذه التقسمة الجزء الأكبر والنصيب الأوفى لتنازلها وموافقتها لباقي الدول على التمتع بحقوقها في أفريقيا الشرقية والمجهدات التي بذلتها لتنمية ممتلكاتها في الجزائر وتونس والسنغال والكونغو . ولقد جاء في الإتفاق المبرم بين فرنسا وإنجلترا حقناً في ربط مستعمراتنا في السنغال والجزائر عبر الصحراء ، كما يعطينا نفس الإتفاق الحق في شمال بحيرة تشاد التي

نزمع الوصول اليها من الكونغو عن طريق باجورمي . ويجب على نفوذنا أن ينتشر أولا في هذا البلد الأخير وأن نعمل على ربط الكونغو الفرنسي والسنغال والجزائر وتونس حول السودان .

ويجب علينا لتحقيق هذه الأهداف هو القيام بعمل إيجابي مباشر لوضع هذه الخطة موضع التنفيذ أن نأخذ على عاتقنا مهمة تمويل حملة نرى أن تسند قيادتها إلى پول كرامبل بقصد استكشاف المنطقة الواقعة بين الكونغو وبحيرة تشاد وتكون من مهمتها عقد المعاهدات مع رؤساء تلك البلاد ثم العودة عن طريق الشمال إن أمكن ذلك . على أن تكون هذه الحملة مقدمة لحملات أخرى تقوم بتمويلها وبذلك يمكننا خدمة النفوذ الفرنسي درين أن نكبد الحكومة أية مصاريف أو نعرضها لتحمل أية مسئولية . ونحن نعتبر مثل هذه الحملات ضرورية في وقتنا الحاضر إذ أن للبحر الأول الحق في السيطرة على أفريقيا الوسطى . ومن ثم نستطيع تنمية تجارتنا في هذه المناطق بعد أن تقع تحت النفوذ الفرنسي كما هو متبع الآن في البلاد الواقعة في نيجيريا .

لذلك كله قررنا تأليف شركة تحمل اسم لجنة أفريقيا الفرنسية يكون هدفها انتشار النفوذ الفرنسي والتجارة بكافة الوسائل في أفريقيا الغربية والوسطى والشمالية . وقصد هذه الشركة تنفيذ

فكرة وطنية حرة لا تدخل لها بالأحزاب السياسية وخارجة عن نطاق الأعمال الحكومية،<sup>(١)</sup>

هذه هي الأهداف التي تضمنها برنامج لجنة أفريقيا الفرنسية التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الإستعمار الفرنسي والتي دفعت بيول كرامبل إلى تلك المناطق كطليعة لعدد كبير من البعثات الفرنسية التي قدر لها أن تأتي من بعده .

ولقد ولد بول كرامبل هذا بنانسي بفرنسا عام ١٨٦٤<sup>(٢)</sup> ثم أرسلته وزارة المعارف الفرنسية في بعثة إلى أفريقيا الوسطى . وفي عامي ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ عاد بمفرده إلى تلك البلاد فاستكشف شمال الكونغو الفرنسي وحدد أراضي المستعمرات الفرنسية في جنوب الكونغو الألماني كما استكشف منابع نهر الاقندو الكبير وجزءاً من مجراه غير أنه لم يلبث أن أصيب بالحمى فقفل راجعاً إلى فرنسا . وفي ١٨٩٠ وكان قد شفي تماماً واستعاد قوته رشحته رحلته السابقة إلى أفريقيا ومعرفته النامة بتلك البلاد لأن يكون على رأس البعثة الأولى التي قررت لجنة أفريقيا الفرنسية إيفادها

---

(١) كتاب « غزو بحيرة تشاد عام ١٨٩١ وحلفاؤنا الأفريقيون ١٨٩٤ » تأليف بول كرامبل من ٢٥٩ إلى من ٢٦٣ .

(٢) دائرة المعارف الفرنسية لغاموس لاروس الجديد العالي المصور من ١٦٠ المجلد رقم ٤٣ .

• لاستكشاف المنطقة الواقعة بين الكونغو وبحيرة تشاد وللقيام  
بعقد معاهدات مع رؤساء تلك البلاد ثم العودة عن طريق الشمال  
ان أمكن ذلك ، طبقاً لما جاء في نص برنامج تلك اللجنة كما قدمناه .  
ولكن كرامبل لم يقدر له أبداً العودة عن طريق الشمال  
أو عن أى طريق آخر فقد التقي به راجح في جوار بلدة « الكوتى » ...

• • •

وصل كرامبل إلى الكونغو الفرنسى ، ومن ثم استطاع  
بسهولة مبتدئاً من مدينة « بنجوى » على نهر الا وبنجى أن يجتاز  
بمحمله منابع نهر شارى . فلما بدأ بعد ذلك يخترق تلك المناطق  
متجهاً شمالاً نحو ضفاف بحيرة تشاد بدأت أرصاء راجح وعبونه  
تنبه لهذا الوافد الغريب .

وكان راجح في ذلك الوقت ، وكما قدمنا ، تربطه بالسوسى  
روابط التحالف والمصاهرة وكانت المناطق الواقعة جنوب وداى  
والى الغرب من مقاطعة دارفور تدخل في نطاق سلطانه الحربى  
وإن كانت تخضع دينياً لزعامة السوسى ومذهبه . وكانت حمايتها  
وحكمها موكولين إلى راجح فما كاد يعلم بتقديم كرامبل وقواته  
في تلك الأنحاء حتى نشط إلى مطاردته إلى أن التقي به بالقرب  
من بلدة « الكوتى » .

كانت قوات كرامبل تتألف غالبيتها من حوالى الستمائة رجل

من السنغاليين المسلحين بنحو ثلاثمائة بندقية في حالة جيدة موديل عام ١٨٤٢<sup>(١)</sup> ومن بعض الجمالين والأتباع ممن انضموا اليه خلال رحلته من الكونغو إلى تلك المنطقة ، التي لم تشهد من قبل مثل ذلك العدد من الأجانب الذين كان يبدو تسليحهم على قدر كبير من التمام .

التقى رايخ اذن بهذه القوات ، وبالرغم من أن أحدا من المؤرخين لم يذكر بعد ذلك شيئا عن نشوب معركة بينه وبينها إلا أنه من الثابت أن رايخا قد استقبل هذه القوات بوصفها قوات غازية معادية . أما كيف قتل كرامبل وأباد حملته نهائيا واستولى على عدته من البنادق والسلاح فقد بقي حتى اليوم لغزا لا يلم بتفاصيله أحد .

فدائرة المعارف الفرنسية تقول إن كرامبل ، قد وقع في فخ نصبه له السنوسى زعيم المسلمين وذلك في بلدة ، الكوتى ، بعد موافقة رايخ ،<sup>(٢)</sup> بينما يذكر اميل جنجيل في كتابه « سقوط امبراطورية رايخ ، إن كرامبل قد لقي حتفه ، بناء على تحريض من رايخ أو اوامر من السنوسى نفسه ثم سلمت أسلحته بعد ذلك إلى رايخ

(١) كتاب « سقوط امبراطورية رايخ » لمؤلفه اميل جنجيل ص ٢٣٥ .

(٢) دائرة المعارف الفرنسية لغاموس لازوس الجديد العالمى الصور ص ١٦٠ المجلد رقم ٤٣ الطبعة الجديدة .



وكانت تبلغ على وجه التقريب ثلاثمائة بندقية في حالة جيدة  
موديل ١٨٤٢ ، . . .

ولقد حرص السنوسي بعد ذلك على التنصل من تهمة قتل  
كرامبل أو الاشتراك فيها كما كان حريصاً على أن يثبت ذلك  
للسلطات الفرنسية بإقامة علائق ودية معها بعد ذلك <sup>(١)</sup> ويبدو  
أن تلك السلطات لم تكن على استعداد لأن تناصب السنوسي العداوة  
في الوقت الذي كان عليها فيه أن تتكفل كل جهودها ضد راجح  
الذي كان قد بدأ يوسع نفوذه ويوطد أقدامه في تلك البقاع  
كقوة حربية خطيرة لذا فقد آثرت التظاهر بتصديق برامة السنوسي  
من دم كرامبل ملقية المسؤولية كاملة على عاتق راجح الذي اعتبر  
بحق العدو الأول لخطط فرنسا في تلك المنطقة البكر .

قتل كرامبل إذن ، وبمقتله تالقت مشروعات « لجنة أفريقيا  
الفرنسية » الصدمة الأولى على يد راجح . ونحن وإن كنا لانستطيع  
أن نزيد إلى تفاصيل ذلك الحادث شيئاً جديداً لقلة ما تركه  
المؤرخون عنه إلا أننا لانستطيع مع ذلك أن نهمل بيان ذلك  
الأثر الضخم الذي خلفه في حياة راجح . فبالإضافة إلى أن مقتل  
كرامبل هذا قد أتاح للأول الاستيلاء على أسلحته مما ساعده

---

(٣) كتاب « حياة السلطان راجح » مؤلفه جاستون دي جاربيك طبعه  
باريس ١٩٠٢ من ٩٦ .

إلى حد كبير على تقوية جيشه وإقامة قواعد امبراطوريته فيما  
بعد ، فإنه قد حدد أيضاً مركزه نهائياً بالنسبة للغزو الفرنسي  
أولاً ، وبالنسبة لما كان يربطه بالسنوسى من تحالف ثانياً . فقد  
كان تنصل السنوسى من ذلك العمل الذى إن لم يكن قد شارك  
فيه فهو على الأقل قد رحب به ، ثم انضمامه إلى الفرنسيين بعد  
ذلك إيذاناً لا بانفصام عرى هذا التحالف فحسب وإنما بداية  
لعداوة مستترة بين راجح والسنوسى بعد ذلك سوف نلمس آثارها  
فيما جرى عقب مقتل كرامبل من وقائع وأحداث .

## امبراطورية راج ..

« راج يؤدب مملكة ودای - نحو الغرب -  
نهر شارى - حصار ماشهاذ وهزيمة  
الباجورمين - اكنساج برنو ومركة كوگا -  
« راج يحكم امبراطوريتہ - راج الزعيم القوي »

قلنا ان مقتل كرامبل كان حادثا بعيد الاثر في سير الاحداث  
بالنسبة لراج بعد ذلك فقد زوده بثلاثمائة بندقية لم يكن حصوله عليها  
في ظروف كظروفه تلك شيئا قليل الاهمية ، كما فتح امامه آفاقا  
بعيدة وملأ نفسه بالثقة والعزم فبدأ ، بعد أن كانت كل معاركه من  
قبل لا تعدو أن تكون غزوات متفرقة لا يربطها هدف واحد ،  
يفكر في أن تأخذ حروبه شكلا جديدا وانتصاراته هدفا أوسع  
وأعمق مما كانت عليه . .

بدأ راج لأول مرة يفكر في أن تكون له مملكة واسعة  
يستقر في ربوعها ويتحكم في مصائرهما ويجمع حول رايته القوى  
المناهضة للغزو الفرنسى الجديد الذى جاء كرامبل بطلائعه . وكان  
طبيعيًا أن يدرك راج بفطرته وخبرته التى اكنسها من نشأته تحت  
زعامة الزبير السياسية أنه ما لم يوحد تلك القبائل المتفرقة في حوض

نهر شارى وعلى ضفاف بحيرة نشاد والتي كان معظمها من القبائل  
الوثنية فى أمة واحدة فلن يقبض هذه المناطق أبدا الوقوف فى  
وجه ذلك الغزو الفرنسى المنتظر ، وأن بقاءها على هذا النحو من  
التفرق كفيل بأن يجعلها تتساقط الواحدة بعد الأخرى كأوراق  
الخريف فى أيدي أصحاب الأموال الفرنسيين . .

ولكن كان على راجح قبل أن يبدأ خطته البعيدة تلك أن يعلم  
السنوسى حليفه السابق درسا لا ينسى جزاء انخياره للفرنسيين عقب  
مقتل كرامبل . ولما كان عسيرا على راجح أن يهاجم السنوسى نفسه  
فى واحة الكفرة فقد عول على القاء درسه هذا على ملك ودّاى  
الذى كان يدعى سلاّمات والذى كان مركزه فى الواقع بالنسبة  
للسنوسى مركز التابع والخدام .

لذا فما كاد راجح يتمون بالمؤن والذخيرة ويعيد تنظيم قواته  
حتى اتجه شمالا لتأديب مملكة ودّاى التى يعرفها من قبل منذ أن خاض  
على حدودها بعض الممارك تحت لواء الزبير كما سبق أن ذكرنا .  
واقدر استطاع راجح هذه المرة أن يوقع بعض الهزائم بقوات  
ودّاى وهى وإن لم تكن هزائم حاسمة إلا أنها كانت كافية فعلا  
لإشعار السنوسى بقوته وخطره وبأنه قد خسر بفقد حليفاً قويا  
يستطيع لو أراد أن يقض مضجعه .

ولكن راجحاً لم يكن يريد أن تضيع قواته التى يعدها لهدفه

الكبير الآخر في حرب طويلة مع ودّاي لن تنتهي مع ذلك إلى شيء واضح محدد فلم يلبث أن تعجل رفع حصاره عن تلك المناطق والاتجاه نحو الغرب حتى شواطئ نهر شارى .

ولقد لعب نهر شارى هذا دوراً كبيراً سواء في إقامة إمبراطورية راج أو في انهيارها في النهاية ، وذلك بتسهيله لنقل القوات الفرنسية إلى مناطق السودان الوسطى . فقد استطاعت هذه القوات أن تنقل إلى صفحته عدداً من البواخر النهرية ساعدت في صورة واضحة على سرعة التنقل بتلك المناطق وعلى التمهيد لنقل مؤونتها وعتادها على نحو أفادها أعظم الفائدة في المعارك التي خاضتها ضد راج .

ونهر شارى نهر كبير يقع في جوف أفريقيا الوسطى وينبع من المرتفات الواقعة بين بحيرة تشاد والنيل والكونغو ثم يجري ينطء في اتجاه الجنوب لمسافة قصيرة يغير بعدها اتجاهه إلى الشمال الغربي حول سهل كبير ليصب في النهاية في جنوب بحيرة تشاد بدلنا واسعة تعترضها الصخور ، وهو صالح للملاحة في أكثر أجزائه وإن اعترضت مجراه بين الحين والآخر عدة جزر وسدود من الرمال حيث تكثرت التماسيح وفرسان النهر كثرة ملحوظة .

وكان يقطن شواطئ هذا النهر عندما بلغها راج عدد من قبائل الوثنيين مثل قبائل الملتوس Miltous والبواس Bouas

والساراس Saras والاليتونز Alitons واثوموكس Torocks وهي قبائل تختلف في الجنس والعادات والتقاليد وإن اشتركت جميعها في أنها تعيش على نحو من الهمجية والبدائية . فأفراد التوموكس مثلا نحاف الجسم يقطنون أكواخا تدل على البؤس وقد وصفها دائرة المعارف الفرنسية (١) بأنها أكواخ مغطاة بالحشائش والنبات الجاف يرى الانسان بداخلها جرارا مدفونة في الأرض حتى نصفها الأعلى وقرعة كبيرة لحفظ الماء وأخرى للدقيق وسلال كثيرة وفراش يتكوّن من قطعتين من الخشب متوازيتين وقد ثبتت أطرافها على أربعة أوتاد ، أما الزراعة هناك فمتأخرة جداً وتقع أعمال الحقول على عاتق النساء من أفراد القبيلة ، بعكس قبيلة الساراس التي كان سكانها يعتبرون من أجمل سكان تلك المنطقة بالرغم من أنهم كانوا يخلعون أحد قواطع أسنانهم العليا ويساوون باقي الصف بالمبرد وكانوا يعنون بالزراعة إلى حد بعيد إلى جوار إجادتهم للقتال وحبهم للحرب والنزال . وكان لباس تلك القبائل غاية في البساطة يتكوّن من قطعة من جلد الماعز يشدونها حول وسطهم لتستر أجسادهم من الخلف فقط وكان مستواهم العقلي والاجتماعي غاية في التدهور والبساطة .

ولم تقو هذه القبائل بطبيعة الحال على الصمود أمام قوات راج

(١) دائرة المعارف لفاموس لاروس الجديد العاشر المصور صفحة ٦٨ ١٠٦٨ المجلد

٤٢ الطبعة الجديدة .

فاستسلمت له بغير جهد كبير على شدة بأسهم وبراعتهم في القتال .  
وكان طبيعياً أن ينشر راجح بينهم بعد ذلك الدين الإسلامى ويشيع  
في ربوعهم نوعاً من العدل والأمان لم يحسوا به من قبل ، وينقلهم  
بمجهود يعتبر من أروع ما شهدته تلك المناطق ، من حياتهم الفطرية  
البائسة إلى حياة أكثر رقياً وحضارة مما أدهش حتى أعداءه من  
المستكشفين الفرنسيين الذين زاروا تلك القبائل بعد ذلك .

ولقد أقام راجح ينظم شئون تلك القبائل على ضفاف نهر  
شارى حتى عام ١٨٩٣ فلما اطمان إلى شئون مملكته الناشئة هذه ،  
ترك بعضاً من الحاميات في «تجباو» و «كونو» وغيرها من مدن  
نهر شارى ثم تحرك نحو الشمال لاتمام هدفه الكبير حتى بلغ  
حدود باجورمى .

\* \* \*

وباجورمى هذه ولاية إسلامية تقع في وسط أفريقيا كان  
يحكمها في ذلك الوقت سلطان يدعى عبدالرحمن جورانج . ولقد تمتعت  
هذه الولاية باستقلالها التام حتى السنة التي بلغ راجح فيها حدودها  
أى حتى عام ١٨٩٣ . ولم يكن احتلالها في ذلك الحين من بين أهداف  
راجح وإن كان مع ذلك قد اضطر إلى الهجوم عليها بقصد أن يفتح  
لنفسه طريقاً إلى ما وراء نهر شارى غرباً وهو الطريق الذى كانت  
تتحكم فيه بلدة «مانافا» الواقعة على حدود تلك الولاية .

وكانت بلدة مانهافا هذه تتمتع بموقف حصين يعصمها من الغزو فلما بلغها راجح أحكم حوطها الحصار لمدة خمسة أشهر كاملة أذاق الباجوريين خلالها من أهوال القتال والحصار ما دفعهم في النهاية ، وقد ينسوا من تخليص مدينتهم ، إلى الهرب منها عبر النهر فدخلها راجح وضم من بقي فيها من الأهالي إلى أسره .

وبسقوط مانهافا في يد راجح فتح أمامه الطريق إلى الغرب .. أما سلطان باجورمي بعد ذلك فقد أدرك من فقده لذلك الموقع الحصين أن عدوا عنيدا قد بدأ يبرز نجمه على حدود ولايته وان هذا العدو لن يدع للأمن سيلا إليه ففضل في عام ١٨٩٤ أى بعد شهرين قلائل من سقوط مانهافا أن يستسلم للنفوذ الفرنسي الذي بسط حمايته على تلك الولاية بمقتضى الاتفاقية التي عقدت في ذلك العام بين فرنسا والمانيا لتقسيم مناطق النفوذ في إفريقيا الوسطى والذي كانت فيه باجورمي من نصيب الفرنسيين .

وفي عام ١٨٩٧ زار تلك الولاية الكولونيل أميل جنتيل مبعوث الحكومة الفرنسية حيث أحسن السلطان جورانج استقباله في عاصمته « ماسينا » وعقد معه معاهدة صداقة وتحالف ضد راجح عدوهما المشترك كما أرسل معه إلى فرنسا عند عودته إليها اثنين من رجائه هما سليمان المرشد العالمي ، ولامانا ، اظهرا لحسن مودته للحكومة الفرنسية .



غير أن راجح لم يكذب يعلم بأمر تلك المخالفة الموجهة ضده حتى  
هاجم عبد الرحمن جورانج واستولى على مملكته بأسرها هذه المرة



(لامانا مبعوث الباجورمين) (سايمان المرشد العالى، ومبعوث الباجورمين)  
بما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد، وإن كنا قد ذكرنا هنا طرفاً من  
هذه الأحداث فما ذلك إلا لنقول إن معركة مانهافا وإن كانت قد  
فتحت الطريق أمام راجح إلى بحيرة تشاد ومملكة بورنو فقد أضافت  
إلى أعدائه عدواً جديداً هو السلطان جورانج الذى لم يتورع  
فى سبيل الاحتفاظ بسلطانه من أن يلعب دور الخائن الذى يمكن  
بمساعده للفرنسيين ووضع بلاده تحت تصرفهم من تضييع جهود  
راجح فى مكافحة الاستعمار الأجنبي البغيض .

\* \* \*

فتح الطريق إذن أمام راجح، ومضت قواته وهى تنتقل من

نصر إلى نصر تزداد عددا وقوة حتى تمكن في النهاية من الاستيلاء على لوجون واكنساح مملكة بورنو فجأة . .

وكان يحكم بورنو سلطان طاعن في السن يدعى هاشم . أراد برغم ما اشتهر عنه من حب للقتال وتفوق في فنونه أن يتعاهد مع راجح حقا للدماء وتجنبا لبلاده أهوال الحروب. ولكن ابن اخته وكان يدعى « خياري » لم يرتح إلى رغبة خاله تلك وعدها جبنا منه وخيانة لبلده فلم يتردد في قتله وتولى الحكم بدلا منه ثم قاد رجاله وسار بهم لمواجهة راجح فلحق به بالقرب من مدينة كوكا عاصمة البلاد .

وكان « خياري » هذا مقاتلا ممتازا ورث الحدق في القتال عن خاله الذي قتله كما كان جيش البورنويين يتألف من فصائل ممتازة التدريب والتسليح فدام القتال بين القوتين نهارا بأكمله فاز فيه « خياري » في النهاية على راجح فوزا عظيما واستولى على معسكره واعمل فيه السلب والنهب مرتكبا من الفضائح ما تقشعر لهوله الأبدان .

في هذه المعركة العنيفة جرح فضل الله ابن راجح جرحا بليغا ، وكان غضب راجح لهزيمة غضبا عاصفا فجمع رجاءه ولامهم في عنف وشدة على جنهم وخورهم كما لام قواده وأغاظ لهم القول حتى أقسموا أمامه أن يفسلوا عار هذه الهزيمة أو يموتوا في ميدان

القتال . وأعاد راجح توزيع الذخيرة على قواته وبات طول الليل يحرضهم ويبيث فيهم العزم فما كاد يشرق الصباح حتى هاجم معسكر البورنويين من جديد وكان هؤلاء لا يتوقعون أن يلم راجح شعثه بهذه السرعة وأن يعاود الهجوم عليهم بعد هزيمة الأمس فأخذوا على غرة وطار صوابهم ، ولم يستطيعوا الصمود طويلا أمام هذه المفاجأة واصرار راجح على الثأر فولوا الأدبار أما « خيارى » ، فعندما استيقن من هزيمته وضاعت جهوده في حصن رجاله على الثبات والدفاع نزل من فوق جواده واستوى واقفاً على الأرض مفضلاً أن يقع في الأسر عن أن يركن إلى الفرار كالجنائ .

ولما مثل بين يدي راجح سأله هذا : « اين ماسككم خيارى ؟ » فأجاب خيارى فى تحد : « ها هوذا واقف أمامك لا يطلب منك رحمة أو شفقة . . » ، والواقع أن دين خيارى كان ثقيلًا لا يشفع فيه طلب الرحمة أو الشفقة بعد أن قتل من قتل من النساء والأطفال فى معسكر راجح فى الليلة الماضية ومثل أبشع تمثيل بمن وقع فى يده حيا من الأسرى . فأمر راجح بتنفيذ حكم الإعدام فيه .

استأنف راجح بعد انتصاره هذا السير إلى مدينة كوكا عاصمة بورنو فوجدها مخربة مهدمة فنشط إلى تعمیرها من جديد كما نشط إلى إخضاع باقى أطراف مملكة بورنو التى لم تظهر غير مقاومة ضئيلة

بعد مصرع سلطانها خيسارى حتى استتب له الامر نهائياً  
فى تلك الاصقاع .

\* \* \*

باخضاع بورنو أصبح رابع سلطانا لمنطقة واسعة الاطراف  
مترامية الأبعاد دام حكمه لها أكثر من سبع سنوات أحبه خلالها  
شعبه من البورنويين وغيرهم وأعجوبوه إعجاباً شديداً حتى تنازلوا له  
عن كل شىء وأحلوه من أنفسهم محل القائد والزعيم .

وبورنو هذه ولاية اسلامية كبيرة تقع فى السودان الأوسط  
ويحدها شرقاً بحيرة نشاد ونهر شارى الذى يفصلهما عن وداى  
وباجورى وتبلغ مساحتها حوالى ١٤٠ ألف كيلو متر مربع وعدد  
سكانها نحو خمسة ملايين نسمة تبعاً لتقدير الرحالين بارث ونايتنجيل  
الذين زاراها حوالى عام ١٨٧٠ أى بمعدل ثمانية وثلاثين شخصاً لكل  
كيلو متر واحد وهو معدل يعتبر عالياً بالنسبة لولاية افريقية ذات  
مساحة كبيرة كهذه ، وتتبع بورنو من ناحية طبيعة أرضها وتربتها  
حوض بحيرة نشاد الذى يكون سهلاً عظيمياً يميل نحو الشرق بدرجة  
قليلة غير محسوسة ويتراوح ارتفاعه عن سطح البحر بين ٢٥٠  
و ٢٦٠ متراً وتخرقه بعض التلال هنا وهناك بينما تتوسطه مساحة  
كبيرة من أراضى طفلية تغمرها المياه دون انقطاع .

وكان يسكن تلك المملكة في أوائل القرن الثاني عشر قبائل  
همجية متوحشة أهمها قبيلة «سو» ، So التي اشتهر أفرادها بالقوة  
وشدة البأس . غير أن أحد ملوك ولاية كانم من يدينون بالدين  
الإسلامي ويدعى «دومانا» لم يلبث أن هاجمها فانصلت بذلك  
الحرب بين الولايتين ودامت قرابة قرنين من الزمان . وفي أواسط  
القرن الرابع عشر كان أحد ملوك كانم قد اتخذ من بورنو  
قاعدة له ولكن قبائل البولالا تمكنت من الهجوم عليه وطرده  
منها واحتلالها ومنذ ذلك الوقت بدأت بورنو تأخذ شكل المملكة  
الموحدة المستقلة . ولقد ذكر ابن بطوطة أن أحد ملوك ولاية  
كانم استطاع في منتصف القرن السادس عشر أن يأخذ بثأر  
أجداده من قبيلة البولالا وأن يضم بورنو إليه ويجعل منها إحدى  
ولايات مملكة كانم .

وتعاقبت بعد ذلك حروب طويلة بين سكان بورنو وساداتهم  
من حكام كانم نما خلالها بين سكان بورنو الاحساس بالشعور  
الوطني حتى استطاع واحد منهم هو «الفقيه محمد الغانم» بمساعدة  
الوطنين من العرب طرد الفاتحين والاستقلال بيورنو وبناء مدينة  
«كوكا» التي اتخذت منذ ذلك الحين عاصمة للبلاد .

وخلف الفقيه محمد غانم في حكم بورنو عام ١٨٢٥ ابنه عمر

فاستطاع أن يوطد استقلال بلاده بعد حروب طويلة في الخارج والداخل فمنا قتل في إحدى تلك المعارك حوالي عام ١٨٥٠ خلفه أخوه عبد الرحمن الذي اشتهر بالعدل والرحمة غير أنه كان ضعيف الإرادة فلم يقو على رجال الاقطاعيات في الداخل وغزوات القبائل الرحالة ومناوشات ملك ودّاي على الحدود ولهذا لم يلبث ابنه السلطان هاشم أن أفصاه عن الحكم وهو السلطان الذي كان يحكم بورنو عندما بدأ رايح يوجه قواته لغزو تلك المملكة .

\* \* \*

من هذا التاريخ المोजز الذي سقناه عن بورنو وعن صلابة سكانها وشدة كراهيتهم للغزاة نستطيع أن نفهم سر استماتتهم في قتال رايح . غير أن رايحا ما كاد يخضع هذه المملكة العنيدة حتى نشط إلى تنظيم اداة الحكم فيها وبث معالم الحضارة بين ربوعها حتى بدأ الأهالي يحسون فلا بأن عهدا من الرخاء قد أقبل مع هذا الحاكم الجديد وبدأ شمراؤهم يقصدونه بالمديح ويطرقون أبواب عدله بالقصائد الطوال . فكان من بين ما قيل قصيدة لعالم برناوى ثبت منها الآيات التالية كمثل تاريخي هام (١) :

---

( ١ ) كتاب اسفار المرحوم محمد عثمان البرغني في غرب افريقيا وانجلترا وعودته للسودان مع رفقاته . بعثة نيجيريا - طابعة بيروت الصفحة الداشرة .

لما فشا العظم لدى البرنوح (١) وعمم العصيان كل الروح  
وصار كل الناس تابعينا أمر الهوى والشر فاعلينا  
فأرسل الله اليهم راجحا من أرض خرطوم أناهم فأنحا  
والواقع أن راجحا قد اتبع في حكمه لتلك البلاد أسلوبا جديدا  
دل على أن مقدرته في حكم الشعوب لا تقل عن مقدرته الحربية  
الفاتكة . فقد قسم البلاد إلى مقاطعات جعل على كل واحدة منها  
حاكما من أعوانه المقرين إليه . ولكن لما كان هؤلاء غرباء عن  
أهل البلاد يجهلون عوائدهم وتقاليدهم فقد عين إلى جوارهم حكاما  
محليين من بين الأهالي أنفسهم ليكونوا واسطة بينهم وبين حكام  
المقاطعات في تحصيل الضرائب وتنفيذ الأوامر ..

وكان الحاكم العام في النهاية وهو راجح يمثل السلطة العليا التي  
تصدر عنها الأوامر والقوانين وبذلك ضمن ولاء الأهالي وولاء  
رؤسائهم المحليين له وأثبت ذلك النظام نجاحه طوال الفترة التي  
قضاها راجح سلطاناً لتلك البلاد . أما عن الشؤون المالية فقد  
جعل راجح على كل مقاطعة قدرا من الضرائب يدفع نصفه لحاكم  
المقاطعة والنصف الآخر لراجح الذي كان يتولى منه الانفاق على  
جلب المهمات وصيانة الأسلحة وإنشاء المباني الصحية المريحة  
في أنحاء البلاد ، وقد كان مما يزيد في دخل راجح ما يغممه من

( ١ ) البرنوح عم قبائل البورنويون .

الغزوات التي كان يشنها على القبائل المحيطة بمملكته والتي دأب على القيام بها لتوسيع أراضيه وبسط سلطان البورنوبين على البلاد المجاورة له .

لهذا كله لم يكن عجباً أن يشهد اميل جنثيل في كتابه « سقوط امبراطورية رابح » ان البورنوبين قد أحبوا ذلك الزعيم القوي الحازم الذي اختلط بالأهالي واندج معهم حتى أصبح واحداً منهم فتأزلوا له عن كل شيء واستكانوا في ظلال عدله وحرمة إلى حياة طيبة هادئة وهم الذين رأيناهم لا يصبرون على غزو أو يستقيمون لضيم . ويختم جنثيل شهادته تلك بتعليق صادق حين يستطرد فيقول : « وهكذا اثبت رابح أن حسن النظام في العمل جدير في كل زمان ومكان أن يفضى إلى أعظم النتائج وأفضلها (١) . »

---

( ١ ) كتاب « سقوط امبراطورية رابح » ، صفحة ٢٣٧ .



## رابع . . . الامبراطور . . .

- ذكوة العاصمة الجديدة - سراى رابع -
- رابع وشئون أسرته - كلمة الحق فى رابع -
- حواء ابنة رابع - غزو مملكة سوكوتو . . .

لم يكدر رابع يستقر فى مملكة بورنو ، ويرسى قواعد حكمها على النحو الذى فصلناه فى الصفحات السابقة حتى عمد إلى نقل العاصمة من كوكا إلى مدينة ذكوة جنوبى بحيرة نشاد .

ولقد قدر لمدينة ذكوة التى اختارها رابع موقعا يتوسط مملكته الواسعة ، أن تشهد خلال حكم سيدها عصرا زاهيا جعل منها بحق المدينة الأولى فى وسط أفريقيا . . فقد كان طبيعيا وقد استتب الأمن فى تلك البقاع تحت إدارة رابع الحازمة أن تنشط فيها حركة التجارة وأن تصبح ذكوة مركزا عاما لها . ولقد جذبت إليها ذكوة جميع سكان وسط أفريقيا على اختلاف أشكالهم وألوانهم وملهمهم ونحلهم من الأسود الجالك إلى الأبيض الناصع فكان من سكانها الطرابلسى والجزائرى وقبائل الهوسا والجلابة ، من يقطنون فى الأصل شواطئ النيل ، إلى جوار الباجورمين وسكان بورنو الأصليين . كل هذه الخلائط من الأجناس البشرية كانت تعيش

في تلك المدينة المزدهرة جنبا إلى جنب بملابسهم المختلفة  
وعاداتهم المتباينة .



رابع الامبراطور في عاصمة مملكته دكوة

وكانت مدينة دكوة كما أنشأها رابع تتكون من قسمين : قسم  
خارجي يتوسطه ميدان فسيح يتجمع فيه سوق المدينة ويجد فيه  
السكان ما يشاؤون من الأقمشة القطنية والحريرية والسكر والبن  
والشاي وأدوات المنازل والحلي والمرجان والذهب . وكان هذا  
القسم يضم إلى جوار السوق منازل شيدت في الخلوات لمشاهير

الرجال في تلك الأراضى وكان بينها وبين بعضها مسافات متباعدة كما كانت مرتبة ترتيباً هندسياً رائعاً . . أما القسم الداخلى فقد كانت له جدران وحوائط منتظمة وأسوار تحتوى على قصور لبعض أولى الشأن وكان أهمها بالطبع سراى راج .

ولقد وصف اميل جنثيل سراى راج بعد أن دخل دكوة منتصراً عتب مقتل سيدها وأفول نجمه فقال إنها كانت بشوارعها وطرقاتها وأفنياتها الداخلية وحجراتها أشبه بالمدينة المنسعة عنها بالقصر . . وكان يحيط بتلك السراى سور يبلغ محيطه المائة متر ، وارتفاعه أربعة أمتار تقريباً ، وقد أقيمت عليه بوابة عمومية كبيرة الانساع ذات باب سميك ورتب بداخلها قبة واسعة لتكون محلاً للحرس . وكان على الانسان أن يسير خلال خمس طرق ضيقة حتى يصل إلى الطوابق التى يسكنها راج وهى مشيدة من حوائط غايظة السمك وبالطابق الأرضى منها ثلاثة ابهاء متسعة يتوسطها بهور رئيسى كان يعقد فيه راج جلساته الخاصة بإدارة شئون مملكته كما يستقبل فيه كبار زواره ومبعوثى حكام الولايات إلى بلاطه . ولما كانت الأخشاب نادرة بالمدينة فقد جعل راج لهذه الأبهاء نوافذ مزدوجة زودها بقماش قوى مصنوع صنفاً متقناً كما فرش أرضها بالسجاجيد والأسرة والمساند فكان الجالس فيها يتمتع بأصريه بصور الفخامة والجمال بينما يأتيه الهواء

رطباً منميشاً بعد أن يتخلص النوافذ المتعددة التي شيدت على نسق  
خاص لتحقيق هذا الغرض .



سراى رابع من الداخل بمدينة دكوة

وغير بعيد عن تلك الابهاء كانت مساكن الحریم وهي لا تقل  
دوعة أو فخامة عن سابقتها كما كان يوجد بالسراى أيضاً فناء

متسع لحفظ الذخيرة من البارود والمفرقات يؤدي إليه دهليز ضيق يحرسه رجال رابع الأشداء .

أما عن حياة رابع الخاصة فقد قيل إن زوجته الشرعيات وخدمه وسراريه كانوا يبلغون جميعاً نحو الألف تقريباً وإن كان من الواضح أن هذا الرقم لا يخلو من مبالغة كبيرة . كما كان له ثلاثة أبناء هم فضل الله ، الذي تزوج بابنة السنوسي وحمل عبء الكفاح ضد الاستعمار بعد مقتل أبيه ، ومحمد نياي ، وحواء التي لعبت هي الأخرى دوراً كبيراً في حياة رابع الحربية ومشروعاته التي كان يعدها لبسط سلطانه على من حوله من حكام الولايات .

وكان كل واحد من هؤلاء الأبناء يسكن في سراي تشبه سراي أبيه وإن اختلفت عنها في صغر حجمها . وقد اشتهر فضل الله ومحمد نياي بالفضيلة فلم يعرف عنهما أنهما أخذا من اللهب بما يأخذ به الشباب من أبناء الملوك وإن دل هذا على شيء فعلياً ما كان عليه رابع من عزم وشدة في تنشئتهم وتدير شؤونهم وشئون أسرته جميعها وحرصه على أن تكون هذه الأسرة في أتباعها لقواعد الدين وآدابه قدوة تحتذى لأهالي تلك البلاد فأثبت بذلك وعياً دقيقاً بما يجب أن تتحلى به الأسرة الحاكمة من آداب ومثل حتى تكون نافذة الكلمة وحتى تكون طاعتها واجبا محتوماً . . .  
والواقع أن الخلق الإسلامي ، ودستور القرآن في سياسة



سرای محمد نیازی من الداخل

النفس البشرية وتعلق رابع وإيمانه بذلك الدين الحنيف كل هذا قد لعب دوراً كبيراً في خلق الحاكم الصالح العادل من ذلك الرجل الذي كان لا يعرف غير لعة السيف والمدفع . ولقد أثبت النجاح المضطرد الذي كان رابع يقطف ثماره يوماً بعد يوم والذي تمثل أول ما تمثل في تعلق البورنويين به وحبهم له ، أثبت هذا النجاح أن الذخيرة الدينية هي دائماً أفضل وأقوى من كل ذخيرة أو عتاد.. ولقد كان رابع حربصاً دائماً على أن يقيم شعائر الدين ، وأن يحبي سننه لا يشغله عن ذلك ما كان بنوء به من أعباء الحكم والحرب حتى روى عنه ، جاستون دي جارليك ، في كتابه « حياة

السلطان رابع، صفحة ١٣٥ أنه بينما كان مشغولاً بحصار كاسورى وقد أقبل إليها من دكوة بقوات عظيمة حل عيد الأضحى الكبير فأمر بتجنيته بإطلاق القذائف من مدافعه الثلاث التي كان قد غنمها بعد معركة تجباو ( كما سيأتى فى الصفحات المقبلة . . ) ولقد فعلت هذه القذائف التى أطلقها رابع شمالى كاسورى تحت أنف الأعداء وبصرهم أثرا بعيداً فى نفوس هؤلاء وهى إذ هزت جنبات المنطقة كلها فقد هزت معها قلوب أعدائه وعلمتهم مقدار ما فى خصمهم من إيمان وقوة وتحدى ..

أما عن صرامة رابع وقسوته فقد روى المؤرخون الفرنسيون قصصاً كثيرة عنها لا تخلو من المبالغة التى ياباها العقل كما أفاضوا فى الحديث عن العيون والارصاد التى قيل أن رابحا قد بثها فى جميع أنحاء مملكته حتى انتشر بذلك التجسس وخيم على البلاد نوع من الحكم الدكتاتورى الخائى أخذ فيه كثير من الأبرياء بالعقاب بدون ذنب جنوه ..

وليس كل هذا مما يستحق التصدى له فإن الهوى والغرض فيما دسه هؤلاء عمداً على تاريخ ذلك المواطن البطل لأظهاره بمظهر الطاغية المتجبر على قدر كبير من الوضوح . وليس هذا غريباً . . فإن أغلب الذين أروخوا لحياة هذا الفاتح السودانى هم من بين أعدائه من الفرنسيين وليس الذى شاب تاريخ رابع من مفتريات

وأكاذيب بالجديد علينا فإن أغلب تاريخ أبطالنا قد كتب بأقلام  
أعدائهم من المفرضين فتشابهت كلها فيما أصابها من مسخ وتشويه ..  
ونحن هنا لا ندافع عن راجح دفاعاً متعصباً رخيصاً فنقع بذلك  
في الطرف الآخر من الخطأ الذي وقع فيه أعداؤه ، كما لا نستطيع  
أن ننكر أنه كان حازماً حقاً ، وصلباً وعنيداً إلى حد بعيد وفرق  
كبير بين هذا كله وبين ما يتهم به من قسوة وبطش وإرهاب ..  
وأنت لا نستطيع أن تتصور عصامياً مثله استطاع أن يؤسس  
بسيفه ملكاً كهذا ، وان يكافح استعماراً كالذي كلفه ما لم يكن  
على شيء كثير من الحزم والصلابة . ولقد أحيط معسكر راجح دائماً  
بالخونة من رجال جورانج والسنوسي وكان عليه إما أن يفتح  
عينيه عليهم ويتربص بهم وإما أن يترك حياته ومصيره نهياً  
لمؤامرات هؤلاء الجواسيس الذين كانوا يعملون على تسليمه  
للفرنسيين .. حقا قد تكون هناك بعض الأخطاء التي لم يكن  
بد من وقوعها ، وقد يكون هناك نفر من الأبرياء لقوا حتفهم  
بغير ذنب ، ولكن ما تكون حياة الأفراد في سبيل أمة وسلامتها ؟  
إن حكم الشعوب فن لا يعترف بالعواطف ، والحرب حين  
تكون من أجل حرية وطن واجب مقدس تكون فيه الرحمة  
ضعفاً واللين جبناً وخوراً ، والتشدد بمبادئ الإنسانية دعوة  
إلى التكاسل والخنوع والتسليم ..



ومع ذلك فقد استطاعت كلمة الحق ، في فترات مختلفة ،  
أن تفرض نفسها على أقلام هؤلاء المؤرخين الموثورين . فأميل  
جنطيل الذى روى عن راجح الكثير من أمثال تلك الأكاذيب ،  
والذى يقول فى موضع من حديثه عنه أنه قد فرض على أهالى  
بورنو حكما ارهايبا مظلما ، يعود فى موضع آخر من حديثه  
فيقول ان البورنويين قد أحبوا هذا الحاكم القوي فتنازلوا له عن  
كل شيء . . . وكما يصفه بالقسوة والوحشية فى بعض اجزاء  
من كتابه عنه ، لا يملك إلا أن يقرر فى أجزاء أخرى منه أنه  
« بالمقارنة بين راجح ومن أخلفوه فى حكم بورنو نجد أنه كان  
أفضلهم جميعاً ويفوقهم فى كل شيء . . . فهو لم يكن قاسيا مثلهم ،  
وكانت الشجاعة من أبرز صفاته بينما كانوا هم يفتقرون اليها  
إلى حد بعيد . . . (١) »

• • •

كان لراجح كما قدمنا ابنة تدعى « حواء » كثيرة الشبه بأبيها  
وكانت تمتاز بذكائها وشجاعتها كما كان لها ولع شديد بركوب الخيل  
كما يفعل الرجال فكانت تلبس دائما ملابس الشبان ولا ترى  
إلا ممتطية جوادها حاملة بندقيتها تشارك فى معارك أبيها جنبا

(١) كتاب « سقوط امبراطورية راجح » اميل جنطيل ص ٢٥٢ .



خيمة رابع وقد حلتها بعض آيات القرآن الكريم منقوشة فوق الأعلام  
إلى جنب مع باقى الرجال حتى استنظارت شهرتها فى القنال ومهارتها  
فى الرماية وإصابة الهدف .  
ولقد كان لهذه الفتاة التى ورثت عن أبيها حب المغامرة  
دور كبير فى شتونه الحربية . فقد تطلع رابع بعد الاستيلاء على  
بورنو إلى غزو بملكة سكوتو الواقعة إلى الغرب منها وكان يحكمها  
سلطان مسلم يرهق الأهالى بمظالمه وكان له ابن يدعى « حيانو »  
وهو فى مثقف ذو شخصية مكتملة فكان فى نزاع مستمر مع أبيه

من أجل أخطائه ومظالمه ضد أهل البلاد حتى اضطر في النهاية  
الهرب من وجهه مع مائة من الفرسان الأشداء والالتجاء إلى بلدة  
«بالدا» في مقاطعة مندارا . وشجع هذا راجحا على انتهاز الفرصة  
والاستعانة بالإبن الهارب في غزو مملكة أبيه والاستيلاء عليها .  
فانصل بحياتو ونجح في تزويجه من ابنته حواء بعد مقتل زوجها  
الأول في إحدى المعارك .

وقامت حواء بدور كبير في إغراء حياتو ونشجبه على الثورة  
ضد أبيه حتى استجاب لها أخيرا وقبل أن يقود جيشا يزوده به  
رابع لغزو مملكة سكونو . ولكن هذا الجيش لم يلبث أن هزم  
في معركة دارت شمالي «كاسورى» فقتل فيها حياتو بالرغم من  
بلائه المجيد وما أبدته حواء خلال المعركة من ضروب الشجاعة  
والاستبسال .

وبموت حياتو في تلك الواقعة غاب أمل حواء في تنفيذ  
مشروعات أبيها الخاصة بالاستيلاء على سكونو فعاتت إليه وتزوجت  
للمرة الثالثة من أحد أفراد قبيلة الجلابة ويدعى «عبيد» الذي  
عاشت معه بعد هذا زمنا طويلا . .

---

# الجاوسوس الفرنسي

« اميل جنريل - تحالعه مع السنوسى - فوق  
نهر شارى - جنريل يزور ماسينيا - بحيرة  
آشاد - رسل السنوسى وجورأج - عودة  
الجاوسوس إلى فرنسا - بيت العنكبوت »

ما من مؤرخ أراد أن يتعرض لتاريخ راجح استطاع أن يغفل  
اسم إميل جنريل أو يغفل الرجوع إلى كتابه الذى نشره تحت  
عنوان « سقوط امبراطورية راجح » . . .

وواقع ان اسم اميل جنريل وارتباطه بسقوط امبراطورية  
راجح وبالأحداث التاريخية الهامة التى دارت فى مناطق السودان  
الوسطى فى الفترة الواقعة بين أعوام ١٨٩٨ ، ١٩٠٠ ليجعل  
من المستحيل على من يؤرخ لتلك الحقبة الحاسمة أن يغفل عن تتبع  
جهود ذلك المبعوث الفرنسى فى تلك البقاع والدور الذى لعبه  
فى تطور الأمور على ذلك النحو الذى انتهت إليه . . .

ولقد ولد اميل جنريل هذا فى فرنسا فى عام ١٨٦٦ ثم خدم  
فى البحرية الفرنسية التى لم يلبث أن تركها عندما وقع عليه اختيار  
الحكومة ليكون من بين مبعوثيها إلى الكونغو حيث ارتاد منطقة

السوغا العليا . وفي عام ١٨٩٥ عندما كان رابح في أوج مجده عاد جننيل موفداً من قبل الحكومة الفرنسية ليرتاد مناطق نهر شارى وبحيرة تشاد ويمهد لانضمام تلك المناطق إلى البلاد الواقعة تحت النفوذ الفرنسى فى قارة أفريقيا . واقد استغرقت بعثة جننيل الأولى هذه الأعوام ما بين ١٨٩٥ ، ١٨٩٨ كما منح من أجلها المدالية الذهبية الكبرى المقدمة من الجمعية الجغرافية الفرنسية وعدته الحكومة الفرنسية أحد أبطالها لما عادت به تلك البعثة على فرنسا من نتائج باهرة .

وكان من أول هذه النتائج تسوية الموقف بين السنوسى والفرنسين وهو الموقف الذى كان لا يزال معاقا بعد مقتل كرامبل كما قدمنا ، وعقد معاهدة مع السلطان جوارنج وضعت الباجورمى بمقتضاها تحت الحماية الفرنسية نهائيا عام ١٨٩٧ . وبهذين العمائين ضمن جننيل لنفسه صداقة قوتين هامتين ، بل ضمن لنفسه أيضا كافة المساعدات التى كان على سلطان جوارنج بمقتضى المعاهدة التى أبرمها أن يقدمها لجننيل ضد عدوهما المشترك رابح . .

\* \* \*

بدأ جننيل رحلته من الكونغو الفرنسى على السفينة « ليون بلوت » التى اعتمزم بها اختراق نهر شارى وكان معه على ظهرها ثلاثة



الجاوس الفرنسى . . . إميل جنينيل

من الفرنسيين وأحد التراجمة وخمسون من السنغاليين المسلحين بنحو  
ثمانية وخمسين بندقية .

وقبل أن يبدأ جنّيل سيره من « جريبنجى » اتصل به مبعوثو  
السنوسى وكان على رأسهم رجل يدعى صلاح الطرابلسى ولم تلبث  
العلاقات بينه وبينهم أن أصبحت طيبة للمعاينة حيث تم التفاهم على  
حادثة مقتل كرامبل وكيف أن السنوسى برى منه تماما وأن  
المسئولية كلها فيه تقع على رابع . غير أنه حدث أثناء عودة هؤلاء  
المبعوثين إلى ديارهم أن هاجم الوثيون من رجال قبيلة  
التومباكوس Tombacos وقتلوا صلاح الطرابلسى ، ونهبوا  
متاعه فظن السنوسيون أن هذا الحادث قد تم بتحريض من  
جنّيل انتقاما لمقتل كرامبل وكادت بذلك رحلة جنّيل تتعرض  
للفشل من أولها لولا أنه سارع بإزالة نتائج ذلك الحادث مظهرا  
براهته من التحريض على تلك الجريمة كما توسط لدى الوثنيين لإعادة  
الأشياء المسروقة وهكذا مر الحادث بسلام واستطاع جنّيل  
في النهاية أن يغادر جريبنجى وقد اطمأن تماما إلى موقف  
السنوسى منه . .

بدأ جنّيل بعد ذلك يمشى بسفينته عباب نهر جريبنجى أحد  
روافد نهر شارى مصعدا فيه حتى بلغ المجرى الرئيسى لنهر بعد رحلة  
طويلة بين مختلف القبائل القاطنة على ضفافه والتي اختلفت طرقها

في استقباله : فقد توجست بعضها خيفة منه بينما رحب به بعضها الآخر ترحيبا لم يخل مع ذلك من الخذر والقلق . وعلى العموم لم يصطدم جننيل خلال تلك المرحلة من رحلته بأية متاعب حقيقية مع سكان تلك المناطق الذين ولا شك قد أخذهم الرعب لمراى سفينته وهي تشق صفحة النهر حتى سموها بالمنزل العائم فوق سطح الماء ، بالرغم من أن الفئة المثقفة منهم كانت قد سمعت عن المراكب البخارية من الذين قاموا بتأدية فريضة الحج . .

ولقد كتب جننيل بعد ذلك في معرض التحدث عن شعور الأهالى أزماءه يقول : كان الخوف هو الشعور البادى على الأهالى نتيجة قدومنا المفاجيء وكانوا يتساءلون من أين أتينا وإلى أين وجهتنا . هل جئنا لمصادقة سلطان باجورمى أورابح . . وغير ذلك من المسائل العامضة . . .

والواقع أن حيرة الأهالى هذه وجهلهم بحقيقة أمر تلك البعثة وهل هى حليفة لرابح أم لجورانج . وهما القوتان اللتان كانتا تتنازعان النفوذ في تلك المنطقة ، هى التى مكنت جننيل من أن يخترق تلك البلاد دون أن يلقى مقاومة ما حتى أمكنه أن يصل فى النهاية إلى بلدة بوجومان ، على ضفاف نهر شارى العليا . أقام جننيل فى بوجومان بعض الوقت يجمع المعلومات ويتصل عن طريق الرسل بالسلطان عبد الرحمن جورانج فى عاصمته



ماسينيا . ولقد أحسن أهالى تلك البلدة التابعة للسلطان جورانج استقبال جنيل ، كما استطاع هو أن يتعرف من اتصاله بهم على الكثير من أحوال البلاد وكيف أن الباجورى ما كادت تخرج من الحرب التى خاضتها عام ١٨٧٠ ضد مملكة ودأى حتى أصيبت بحملة رابع ( التى سبق ذكرها ) والتي كانت آثارها ما زالت باقية حتى ذلك الحين . ولم يغب عن جنيل أن وجود رابع فى مملكة بورنو يعتبر خطراً دائماً على الباجورمين قد يدفعهم إلى الترحيب بمخالفة النفوذ الفرنسى فعمل على استغلال الموقف لصالح حكومته بعقد معاهدة التحالف بينه وبين السلطان جورانج .

وبعد اثني عشر يوماً من إقامة جنيل ببلدة بوجومان وصله الرد من السلطان على رسالته إليه التى كان قد حملها إلى العاصمة أحد رجاله من السنغالبين يدعى أبا بكر وبالرغم من أن الرد كان مهتماً إلى حد بعيد فان ، أبو بكر ، عاد فى نفس الوقت فى صحبة ثلاثة رجال من حاشية السلطان الذين كانوا يتمتعون بثقته إلى حد بعيد . وكانت مهمة هؤلاء الرجال أن ينقلوا إلى جنيل سرور السلطان بمقدمه وترحيبه بمقابلته التى يستحسن السلطان أن تتم فى العاصمة نفسها ماسينيا .

عندئذ وجد جنيل أن الفرصة قد منحت فعول على زيارة ماسينيا ، متخذاً إليها طريق نهر ، أرجيج ، أحد روافد نهر شارى .

وأحسن السلطان جورانج استقبال ضيفه في مظاهرة عسكرية  
باهرة وتم في هذه الزيارة عقد المعاهدة المذكورة كما زود جورانج  
الجالسوس الفرنسي باثنين من الأدلاء ليقودا رحلته إلى بحيرة  
تشاد بالرغم من أنه كان يرى في محاولة اختراق مناطق رابع  
بجازفة خرافية غير مأمونة العواقب .

استأنف جنّيل بعد أن فرغ من تحقيق أهدافه في الباجورمي  
رحلته عائداً إلى نهر شارى ووجهته بحيرة تشاد كما قدمنا ماراً  
بمدينتي «لوجون» و«كاسورى» ، وكانت كاسورى هذه مدينة كبيرة  
محصنة يبلغ تعداد سكانها أكثر من اثني عشر ألف نسمة تحيط  
بها أسوار مرتفعة سميكه تمتد على جبهة طولها أربعة آلاف متر  
وكانت منازلها شاهقة الارتفاع تحتوى على أدوار تزيد في  
الارتفاع عن هذه الأسوار وكان رابع قد تركها قوة كبيرة  
لحمايتها كما وضع في مدينة «جولني» هي الأخرى حامية كبيرة وعن  
طريق هاتين الحاميتين كان ييسط سلطانه على دلتا نهر شارى .  
ولكن لسبب لايزال غامضاً حتى الآن كان رابع قد استدعى  
هاتين الحاميتين إلى عاصمته «دكوة» قبل وصول جنّيل إليهما بنحو  
ثلاثة أيام وبهذا انفتح الطريق أمام جنّيل حتى أشرف على بحيرة  
تشاد في صباح ٢ نوفمبر ١٨٩٧ دون أن يعترض طريقه أحد . .  
وتشاد بحيرة في السودان الوسطى تقع بين ولاية كانم

في الشمال الشرقي وبورنو في الجنوب الغربي على ارتفاع يبلغ ٢٦٠ متراً عن سطح البحر وهي تشبه تقريباً المثلث المنساوي الأضلاع حيث تقع زاوية الرأس في الجنوب الغربي. وتبلغ مساحة البحيرة حوالي ٢٠.٠٠٠ كيلو متر مربع وهي عبارة عن حوض كبير مغلق يمتد إلى أراضي بنوا ويحدها من الغرب نهر النيجر وفي الجنوب الأوبنجي والكونغو وفي الشرق النيل الأبيض. وتتغذى البحيرة من الأمطار عن طريق الرياح المشبعة التي تهب من خليج غينا والتي تتساقط ابتداء من شهر يوليو حتى شهر أكتوبر كما نصب فيها الأنهار الآتية من الغرب والجنوب وأهمها نهر شارى الذي تصب مياهه في الجزء الجنوبي الغربي من البحيرة وهو أكثر أجزاء البحيرة عمقاً أما الأجزاء الشمالية والجنوبية الشرقية فهي صخرية وتحيط بالأنهار التي نصب بها هناك بمجموعات من الجزر تسمى أرخبيل كورى وبودوما تجعل من الصعب سير المياه مباشرة.

وبفضل ما يحمله نهر شارى ورمال كأنهم نتيجة لهبوب الرياح الشمالية الشرقية في فصل الشتاء يتعرض الجزء الشرقي أكثر فأكثر لتكون مثل هذه الجزر التي تمتد من الجنوب الغربي حتى الشمال الغربي.

وتشبه بحيرة تشاد الكثير من البحيرات الإفريقية التي تتضاءل مساحتها تدريجياً، ومن المحتمل أن هذه البحيرة كانت تصب

في الأزمان الغابرة عندما يحل موسم الفيضان في بحر الغزال من  
جته الشمالية الشرقية ، ومياه هذه البحيرة عذبة ويحيط بالكثير  
من جزرها الأشجار والحشائش التي يتغذى منها البقر والخيول .

\* \* \*

كان جنطيل يعرف أن نجاح رحلته هذه إنما هو مدين به في  
الواقع إلى تلك الظروف الغامضة التي جعلت رابح يحجم عن  
مهاجمته . واقد كان سكرت رابح هذا مدعاة في الواقع إلى الشك  
والريبة أكثر منه إلى الأمن والسلام . لذا فقد قرر جنطيل العودة  
سرياً مفضلاً ألا يحمل الظروف أكثر من ذلك ولينجو من  
المذبحة المروعة التي كان معرضاً لها في أي وقت يفكر فيه رابح  
بالتعرض بمحاولة لتلك القافلة الهزيلة التي يقودها والتي لم يكن  
يزيد تعدادها عن الخمسين رجلاً . .

قرر جنطيل إذن مغادرة تلك البلاد سرياً مكتفياً بما أحرزه  
من نتائج سياسية مع السنوسى وسلطان الباجورى حامداً للظروف  
أنها جذبت الاحتكاك بربح الذي كانت شهرته تصدمه في كل  
خطوة من خطواته ، أو الالتقاء بمصير كمصير سلفه كرامبل .  
ولما كان قد عول على أن يصحب معه عند عودته إلى فرنسا  
مبعوثين يمثلون السنوسى والسلطان جوارنج ليسوقهم كأعلام  
النصر في مواكبه هناك وليدلل بهم على مقدار ما أصابه في تلك

البقاع من ظفر ونجاح لذا فقد أرسل إلى السنوسي طالباً منه أن يوفد إليه اثنين من أعيان البلاد ليتشرفوا بزيارة فرنسا في صحبته كما أرسل يطلب نفس الطلب من السلطان جوارنج .



الحاج تكور . مبعوث السنوسي أحمد . سفير الباجوريين الأزرج . مبعوث السنوسي الآخر

واستجاب السنوسي وسلطان الباجوري لطلبات حليفهما الجديد . . فأرسل الأول اثنين من رجاله هما الحاج تكور والأزرج ، كما أرسل الثاني سليمان ، أحد الدليلين اللذين اصطحبا جنتيل إلى بحيرة تشاد وكان على شهرة كبيرة بمعرفة تلك المناطق حتى كانوا يسمونه المرشد العالي ، ، وكان معه رجلان أحدهما يدعى أحمد والآخر يدعى لامانا . . فاصطحب جنتيل كل هؤلاء وعاد إلى فرنسا التي استقبلته استقبال الغزاة الفاتحين وخلعت عليه من الجوائز والهدايا ما يتناسب وما أداه للاستعمار الفرنسي من خدمات في تلك الأراضى البكر ..

ولقد وصف جننيل بنفسه ذلك الاستقبال الذى لقيه عند عودته فقال : « ولقد قوبلت فى باريس بمقابلة عظيمة أثرت فى نفسى كما نلت جوائز كثيرة وكنت منشرح الصدر بتقديمها إلى حيث نلت شرفا عظيما فى مجلس الوزراء باستعمار الأماكن والأراضى والبلاد التى اكتشفتها .. » (١)

ولكن سرور جننيل هذا لم يدم طويلا فان الأخبار السيئة لم تلبث أن وصلت إلى فرنسا بعد ذلك . كانت أداة رابح الحرية التى سكنت على جننيل كل ذلك الوقت قد بدأت الآن تتحرك وتضرب ضربتها لتطيح بكل ما كسبه الجاسوس الفرنسى فى رحلته ولتجعل من إدعائه بأنه قد نجح فى استعماره لتلك الأماكن والأراضى والبلاد كذبة لا ينهض على صدقها أى دليل .. وكأنى بكل ما تركه جننيل فى تلك المناطق من أثر ، وكل ما حققه لبلاده من كسب طوال الأعوام الأربعة التى استغرقتها رحلته ، وكل الجهد الذى بذله فى عقد المحادثات مع السنوسى والبايجورمين .. كأنى بكل هذا لم يعد أن يكون بيتاً من العنكبوت ما كاد رابح ينهض له حتى تحطم وهوى مزقا وانقاضاً وأصبح أثراً بعد عين من قبل أن تخمد أصدااء الصيحات التى أرسلها إميل جننيل فى فرنسا معلنة عن نصره الموهوم .

(١) « سقوط امبراطورية رابح » مؤلفه إميل جننيل صفحة ١٠٤

## انتقام رابع ...

- رابع يشبه إلى المطر - معاقبة القبائل -
- ماسينيا تحرق - الباجورى فى قبضة رابع
- حلة برتونيه - موقعة تيجاو -
- حادثة يهاجل - شرف فرنسا .

ما كاد جنتيل يفادر مناطق السودان الوسطى وقد خيل إليه أنه قد ضمها نهائيا إلى النفوذ الفرنسى حتى تحرك رابع بقواته ليمسح عن تلك البقاع آثار الخيانة التى نثرها جنتيل وراهه فى الباجورى وفوق ضفاف نهر شارى ..

إن رابحا لم يغفل لحظة واحدة عن بعثة جنتيل . وهو وإن كان قد تركها تذرعا بلاده من الجنوب حتى الشمال فما كان هذا عن ضعف أو خشية أمام تلك القافلة الهزيلة التى لا تكاد قوتها تزيد عن ثمانية وخمسين بندقية ، وإنما لأن قافلة كهذه لا يمكن أن تكون ذات خطر كبير على نفوذه الذى تحميه جحافل من رجاله الأقوياء المسلحين .. والواقع أن رابحا أراد أن يتجنب الاحتكاك بجنتيل وإعادة قصة كرامبل من جديد دون مبرر هذه المرة حتى لقد رأيناه يسحب حامياته من كاسورى وجولفى قبل أن يبلغهما جنتيل بأيام ثلاثة ..





ولكن النتائج التي نجمت عن تلك الرحلة لم تلبث أن نهت رابحا إلى خطرهما الحقيقي . . فقد كان ترحيب القبائل الخاضعة لنفوذه على ضفاف نهر شارى بتلك البعثة مضافا إليه تلك المعاهدة التي أبرمها جننيل مع جورانج شيئا ذا خطر بالغ على سلطة رابح في تلك المناطق حفزه على الإسراع بالقيام بعمل مضاد يفسد على الاستعمار الفرنسي مقاصده ويعيد الأمور في إمبراطوريته الواسعة من قبل أن تفلت من يديه وتؤدي به وبجهوده السابقة التي بذلها إلى الدمار والنشبت . .

وهكذا هب رابح إلى إعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل وصول بعثة جننيل فبدأ بمعاينة القبائل التي رحبت بها وإشعارها بأن قبضته مازالت قوية وما زالت قادرة على البطش بكل من يعاون الاستعمار الأجنبي أو يرحب به . وما كاد يفرغ من هذا ويتلقى خضوع زعماء القبائل له من جديد حتى استدار بعد ذلك لمواجهة الباجورمين وتلقين سلطانهم درسا لا ينساها . .

تقدم رابح بقواته مجتازاً أراضي الباجورمين للمرة الأولى منذ معركة مانهافا السابقة دون أن يلقى أية مقاومة تذكر حتى بلغ العاصمة نفسها حيث يقم السلطان . وكان جوارنج منذ بلغته أنباء تقدم رابح يرتعد خوفا من ملاقاته ذلك القائد العاضب فما كاد يعلم بقرب وصوله إلى عاصمته حتى أحرقها وانسحب منها مولياً الادبار نحو الجنوب ليلتقي بساته من الفرنسيين الذين

تعهدوا بحمايته . وهكذا دخل رابع ماسينيا عاصمة الباجورمين  
منتصراً فاتحاً دون أن يخسر واحداً من رجاله وسقطت في يده  
تلك المملكة الواسعة التي ظن الفرنسيون أنها قد أصبحت ملكاً  
لهم لأن سلطاناً خائناً ضعيفاً رضى أن يفتح لهم أبوابها  
على مصاريحها ..  
وكانت هذه هي الأبناء السيئة التي بلغت فرنسا وهي ما زالت  
تحتفل بيطلها جنريل لما قام به من انتصارات وهوومة في حوض  
نهر شارى ..

\* \* \*

ما كادت أنباء تقدم رابع واحتلاله للباجورمي تبلغ فرنسا  
حتى هب المسيو ، جيلان ، وزير المستعمرات الفرنسية لاتخاذ  
الاجراءات الحاسمة والاحتياطات اللازمة للدخول مع رابع في  
معارك واضحة صريحة تقرر مصير تلك البلاد نهائياً .  
وكانت الحكومة الفرنسية قد سبق لها أن عينت عند وصول  
جنريل إلى فرنسا ضابطاً بحرياً يدعى بريتونيه Bretonnet ليحل  
محلّه في الإدارة طوال مدة غيابه . ولكن ما كاد الموقف يتطور  
على ذلك النحو حتى صدرت الأوامر إلى جنريل بقطع إجازته  
والعودة إلى منطقة نهر شارى لمعاونة السلطان جوارنج .  
وأبحر جنريل من فرنسا في ١٥ فبراير ١٨٩٩ قاصداً برازافيل  
قبل في الكونغو الفرنسية فبلغها في ٣٠ مارس ومن هناك بدأ

تقدمه نحو نهر شارى وكان الوقت هو موسم الأمطار التي بدأت تنساقط في غزارة وجعلت نقل القوات والمهمات بوساطة البواخر النهرية عملاً محفوفاً بالمخاطر والمشقات . وهكذا اضطر جنّيل إلى التقدم ببطء حتى بلغ أعالي نهر جرينجى حيث وصلته رسالة من الملازم بريتونيه الذى كان يعسكر بقواته في بلدة « كونو » يشرح له فيها الحالة السياسية وكيف أن وصوله قد أنعش الأمل في قلوب أهالى الباجورمى ثم يختمها بذكر ما يشاع من أن رابحاً قد بدأ يتحرك لمهاجمته في كونو بالرغم من أنه هو نفسه لا يتوقع أن يجرؤ رابح على القيام بمجازفة كهذه . ١ .

كان من الواضح أن بريتونيه هذا ، وهو الحديث العهد بتلك المناطق ، لم يكن يعرف عن رابح وعن حقيقة قوته ما يعرفه جنّيل على الأقل الذى كان قد سبق له أن زار تلك المناطق وألم بأحوالها لذا فبالرغم من الاستخفاف البادى في رسالته إلى جنّيل لم يتردد الأخير في أن يسارع بإرسال ٢٠٠ شحنة من الذخيرة إليه مع ثلاث مدافع ليستطيع بها أن يواجه الموقف .

وبدأت الأنباء بعد ذلك تتوالى على جنّيل تنبئ بمخاطرة الحالة وباقتراب هجوم رابح على قوات بريتونيه الذى لم يحرك مع ذلك ساكناً برغم خطورة مركزه الواضحة مما دل مرة أخرى على أنه يفتقر إلى المقدرة على تقدير الموقف تقديراً سليماً . ولقد

وضح هذا جليا مرة ثانية في رسائله التي بعثها إلى جنجيل والملازم جوليان (١) تفيض بالاستخفاف برابح وقواته التي قدر استطاعته حصدها حصدا دون جهد أو مشقة ، ولعل من الضروري هنا أن نسوق إلى القارىء نص هذه الرسائل لما لها من الأهمية في القاء الضوء على الممركة التي دارت بعد ذلك والتي كانت كفيلة بأن تعلم بريتونيه درسا ينفعه طوال حياته لولا أنه فقد فيها هذه الحياة نفسها ثمناً لاستهتاره واستخفافه بالقائد الذي دوخ القوات الفرنسية على نحو لم يفعله أى قائد آخر في أفريقيا .

كتب بريتونيه لجنجيل يقول : لقد بادرت بإبلاغك اننا قد نظمنا أربعة وأربعين من جنود الميليشيا وعشرين من الباكونجو المسلحين مع أربعائة من الباجورمين ببنادقهم . وبفضل باقى أسلحتنا داخل الحصن يمكننا أن نكبد العدو خسائر جسيمة . وإني أعتمد أيضاً على الدفاع مع التقهر ، وسوف نهاجم باكرا ونحن فى موقع حصين للدفاع . وسواء انضم إلينا جوليان برجاله أو لم ينضم فاننا فى حالة تمكثنا من رد العدو على أعقابهم... (٢)

كما كتب لجوليان نفسه يقول : إن رابحا لا يملك بنادق

---

(١) ملازم فرنسى وقائد فصيلة من الجنود الفرنسيين كان عليها أن تقدم لجنده بريتونيه .

(٢) كتاب سقوط امبراطورية رابح • — مؤلفه اميل جنجيل ص ١٢١

إلا من طراز ضغط الهواء وقليلاً من البارود والخرطوش المعاد  
صنعه وبعضاً من القنابل الحديد فهو لا يقوى على الاحتمال .. ،  
أما جنديل فقد علق على هذه الرسائل بقوله ، واأسفاه ..  
لم كان كل هذا الاستخفاف بالعدو . إن من الواضح أن بريتونييه  
لم يستخبر جيداً عن رابع فان كل ما ذكر من الاستعلامات غير  
حقيقي ولا يمكن الأخذ به .. ، ثم مضى في تقديمه البطيء وقد  
انقطعت عنه أنباء بريتونييه تماماً ..  
فقد كان رابع قد بدأ هجومه ..

\*\*\*

ما كاد رابع يدق أبواب كونو حتى انسحب بريتونييه منها  
واحتل تلال تجباو الواقعة إلى الشرق من كونو وهي سلسلة من  
التلال يبلغ ارتفاعها من مائة إلى مائة وخمسين متراً عن سطح  
البحر وتقع في وسط منطقة تتيم بها قبائل من الباجورمين .  
وفي السابع عشر من يوليو عام ١٨٩٩ استلم رابع القيادة  
بنفسه وكانت قواته تآلف من عشرة آلاف رجل مسلحين إلى  
جوار سهامهم ورماحهم بنحو ألفين وسبعمئة بندقية ، ثم بدأ  
الهجوم على قوات بريتونييه التي كانت قد اختارت مواقعها  
الحصينة فوق تلال تجباو في مهارة وعناية ..  
حمل رابع الحملة الأولى على القوات الفرنسية ولكنه لم يلبث



مقتل بریتونیه فی موقعه تجاوا فی أغسطس ۱۸۹۹

أن ارتد عنها بعد أن كبدها حياة أحد ضباطها ويدعى الملازم براون الذي سقط قتيلًا وأصاب بريتونييه نفسه إصابة خطيرة في صدره اضطرته إلى أن يتقود المعركة بعد ذلك وهو طريح فوق صندوق من الحديد ليشر رجائه بالرغم من إصابته بوجوده بينهم . وعاود رابع الهجوم مرة ثانية بعد أن جمع فوائده من جديد وأمر الخيالة أن يترجلوا عن جيادهم التي كانت تعيقها الصخور عن التقدم ثم قذف بنصف جنوده في المعركة وحمل على مواقع الفرنسيين حملة عنيفة زعزعت جناح القوات الهاجورمية التي تولاها الذعر فولت الأدبار متخلفة عن مواقعها فوق قمتين من قمم التلال الحصينة . في تلك اللحظة تقرر مصير المعركة فقد سارع رابع إلى احتلال هذه المواقع وبدأ يصلى قوات بريتونييه التي أصبحت بذلك فريسة سهلة وابلًا من النيران الحاصدة فأيد السنغاليون عن آخرهم وأصيب بريتونييه نفسه برصاصة قاتلة وعندما تقدم طاور من الاحتياطى تحت قيادة ضابط فرنسى يدعى دوران أوتيه ، لتغيير مصير المعركة حوصر هو الآخر وأيد رجاله جميعاً ..

لم يبق بعد هذه الموقعة التي غنم فيها رابع مدافع بريتونييه الثلاثة والتي عرفت فيما بعد باسم « مذبحة تجبار » ، أحد من القوات الفرنسية على قيد الحياة سوى ثلاثة من الجنود السنغاليين كانت

جراحهم الخطيرة قد حالت دون تمكنهم من الفرار فسقطوا في الأسر ثم استطاع واحد منهم فيما بعد أن يتمكن من الهرب وأن يحمل إلى جنين أنباء تلك الهزيمة الساحقة .

وكان طبعياً أن يتلقى جننيل هذه الأنباء في ألم ووجعة وأن ينشط بعدها إلى الإسراع في الانتقام من رابع حفظا لطيبته أمام الباجورمين على الأقل بعد أن أصابهم انتصار رابع باليأس ، وزعزع من عزائمهم حتى بدأ الكثيرون منهم يسارعون بالانضمام إلى رابع ومهادنته الشيء الذي كان يرى فيه جننيل تهديداً بالغاً لموقفه في تلك المناق .

أسرع جننيل بعد ذلك في تقدمه حتى بلغ بلدة فورث أرشبول ، الواقعة على بعد مائة ميل إلى الجنوب من كونو حيث كان رابع لا يزال مقبلاً بقواته ، وشرع على الفور في تحصين البلدة وتسكديس الأمتعة والمهمات بها استعداداً للخطوة التالية وإن كان لم ينس مع ذلك أن السنوسي ربما ظن هذه التجهيزات موجهة ضده هو استعداداً للهجوم عليه من ناحية ودّاي فيكون هذا ايذاناً بوقوع المتاعب بينه وبين السنوسي مرة ثانية . غير أن هذا الخطر المتوقع من ناحية السنوسي لم يلبث أن انقشع عند ما أرسل هذا الى جننيل رسالة تعزية رقيقة لموت بريتونييه أكدت مرة جديدة ما بين الاثنين من مودة ووفاء .



كانت فورت أرشمبولك كما قدمنا تقع على مبعده مائة ميل من كرونو وكان الطريق الموصل بينهما سهلا معبدا وليس فيه من عائق يمنع تقدم طواير المشاة غير بحر صارا ومع ذلك فقد أخذ جنتيال يتم استعداداته في عجلة ولطفة فلها فرغ من ذلك أصدر أوامره في الثالث عشر من اكتوبر ١٨٩٩ للكابتن روييللو Robillot بأن يتحرك فوراً نحو كرونو لينتقم من رايح ويغسل عار الهزيمة عن سمعة فرنسا الحربية التي مرغت في التراب فوق تلال تجباو . .

\* \* \*

في هذه الفترة جرت حادثة مقتل « فرديناند دي بيهاجل » Ferdinand de Behagle في مدينة دكوة . . وكان بيهاجل رجلا نحيفا متوسط القامة تظاهر على ملامحه القوة والنشاط وكان يعمل مندوبا لإحدى المؤسسات التجارية في فرنسا تسمى « النقابة الفرنسية » في بعثة لانشاء مراكز تجارية تابعة لها حول بحيرة آشاد وحوض نهر شارى . وكان رايح في عداته للفرنسيين لا يسمح أبداً لذلك العداوة الجارفة أن تعمية عن مقتضيات الانسانية وحقوقها : فهو يفرق بين الجنود الفرنسيين الذين يقاومهم بكل سلاح دفاعا عن وطنه ، وبين التجار الفرنسيين الذين يجوبون مملكته بقصد التجارة وحدها والمبادلة على محاصيل البلاد . فهؤلاء كانوا يلقون منه كل عناية وترحيب بالرغم من أنهم كانوا في الواقع طلائع

الاستعمار وجواسيسه يتجولون في أنحاء البلاد ، يجمعون المعلومات عن أحوال رابع وقواته لا بلاغها بعد ذلك إلى جننيل . وكان من الواضح أن يهاجل واحد من هؤلاء الجواسيس الذين يتسترون تحت ستار التجارة منذ أن التقى به جننيل في أعلى نهر شارى ووضع تحت تصرفه باخرته و ليون بلوت ، ابستعين بها في تنقلاته وفي التجسس لحسابه . وبالرغم من ذلك فإنه ما كاد يصل إلى ذكوة ، بعد أن شجعه على زيارتها ما لقيه من معاملة طيبة من عثمان شيكو حاكم كاسورى ، حتى استقبله رابع بنفسه مقابلة ودية أكد خلالها دى يهاجل لمضيفه بأنه يشتغل بالتجارة وحدها وأنه لم يحضر إلى تلك البلاد إلا لدراسة منتجاتها والمبادلة عليها .

ويروى الدكتور ديكورس ، وجود فرى دى ومينيس في كتابهما رابع وعرب نهر شارى ، صفحة ٢١ أن رابعاً أمر في اليوم التالي لوصول دى يهاجل إلى عاصمته ، وكان قد خصص له مسكناً فاخراً إلى جوار منزل أحد الرؤساء بالعاصمة وكان يدعى جبارة ، أمر ولديه فضل الله ومحمد نياني ومعهما الفقيه حامد الكبير والفقيه حامد الصغير بأن يحملوا إلى يهاجل أربعة صناديق من ريش النعام وأنياب الفيل هدية منه إليه وأن يزودوه بما يلزم لتموين قافلته من الحبوب والدقيق والدجاج والبيض

والأرز والزبد والمين والخراف وغير ذلك دون أن يتقاضوه شيئاً من ثمنها ..

حدث هذا في الوقت الذي كان فيه بريتونية قد تقدم إلى كونو ليقتص من رابع لهجومه على السلطان جورانج وفي الوقت الذي كان فيه رابع يستعد للاتحام مع تلك القوات المتقدمة بتجهيز جيشه وجمع السلاح له . وعلم رابع أن دي بيهاجل يمتلك عدداً من البنادق فرغب في شرائها ولكن بيهاجل رأى أن يستغل حاجة رابع إلى السلاح فرفع الثمن وغالى فيه غلوا فاحشاً فافترقا في ذلك اليوم وقد تسكهرب بينهما الجو وإن كان هذا لم يمنع بيهاجل عما كان قد حصل عليه من التسهيلات والمزايا وبقيت له حرية التجول في مدينة دكوة وإن كان قد منع من مغادرتها دون الحصول على إذن بذلك ..

وعاد رابع مرة أخرى يفاوض بيهاجل للحصول على السلاح وكأنما أراد الأخير أن يعاود استغلال الموقف للحصول على معلومات عن قوة رابع وخططه فلم يلبث أن نقل الحديث عن صفقة البنادق والناحية التجارية إلى الحديث عن الناحية السياسية فكشف بذلك عن حقيقة نواياه خصوصاً عند ما سأل رابع قائلاً : وما هي حدودك في منطقة الباجورمى . ؟ (١)

( ١ ) كتاب حياة السلطان رابع — مؤلفه جاسون دي جاريك . صفحة ١٠٢

وكان هذا السؤال بالإضافة إلى تصاب بيهاجل في بيع البنادق  
لرابح كفيلا بأن يفتح عينى الأخير عن حقيقة الدور الذى يقوم به  
الجاسوس الفرنسى .. ولكنه أراد أن يد له الحبل يمشق به نفسه  
كما يقولون فمضى يستدرجه في الحديث وعندئذ لم يتورع بيهاجل عن نقد  
أعمال رابح ضد السلطان جررانج الذى تحميه فرنسا وانهاره بأن  
القوات الفرنسية سوف تجعله يندم تماما على مهاجمته لحليف لها .  
وكان رابح ، كما نعلم ، سريع الغضب فرأى في هذا التدخل السياسى  
من رجل يعتبر مجرد تاجر لا شأن له بأمر السياسة خروجاً عن  
مقتضيات موقف الحياد الذى يجب أن يقفه كما أن رفضه تقديم  
السلح له في تلك الفترة العصبية بعد انحيازها واضحا منه إلى معسكر  
مواطنيه من الفرنسيين ففض الجلسة بأن أمر بالقبض على بيهاجل  
ومعاملته كواحد من الأعداء ومصادرة تجارته من الأسلحة  
والذخائر فاستنكر دى بيهاجل هذا العمل أشد الاستنكار وأخذ  
يسب حراسه .

كل هذه الأمور جرت على نحو طبيعى لا غرابة فيه . . فليس  
غربيا بحال ما أن يصادر أى جيش سلحا يحتاج إليه ، وليس  
غربيا ورايح يستعد لمعركة عنيفة مع الفرنسيين أن يلقى القبض على  
واحد منهم يحاول أن يعطل مشروعاته في الدفاع عن بلاده .  
إنما الغريب حقا أن يعتبر مؤرخو الغرب هذا التصرف الذى تلجأ

إليه كافة الجيوش والدول المحاربة حتى يومنا هذا موضعا للمؤاخذة  
ودليلا على قسوة رابح ووحشيته . !

غادر رابح بعد ذلك دكوة قاصدا كونو لقتال بريتونيه تاركا يهاجل  
في حراسة ابنه فضل الله . ولم يكف يهاجل في أول أيامه في الأسر  
عن الطعن في أعمال رابح والتعريض به أمام من حوله من الرجال  
بل وتماذى أيضا في السباب ناعتا رابح ورجاله بأنهم « كلاب أولاد  
كلاب وعبيد (١) » ، مما أثار عليه الرجال فعلا وملاهم سخما وغبضا  
فما كاد رابح ينتصر على بريتونيه كما قدمنا ويفرغ من إبادة القوات  
الفرنسية في تجباو حتى أرسل إلى فضل الله أمرا باعدام يهاجل  
الذى كانت هزيمة مواطنيه قد خفقت من غلوائه فبدأ يحترم من  
حوله احتراماً يخالطه الخوف والجبين .

وهكذا اتى يهاجل مصرعه . .

إن هذه الحادثة ليست ذات دلالة خاصة فثلاثا يحدث مئات  
المرات في كافة الحروب ونحن لم نذكرها هنا بذلك التفصيل كمحاولة  
للدفاع عن موقف رابح فانه موقف طبيعي لا يحتاج فيما نرى إلى  
أى دفاع وإنما لنهيء ذهن القارئ لتلك القسوة الحقيقية والهمجية  
البربرية التي ارتكبتها القوات الفرنسية فيما بعد عند ما علقت رأس  
رابح فوق حربة طويلة ومضت تمثل بجثته على صورة تنسافي  
وأبسط ما تدعيه فرنسا لنفسها من شرف ومدنية . .

(١) « سقوط امبراطورية رابح » مؤلفه إميل جنيل صفحة ٢٥٣

## معركة كوينو

- « الزحف على كونو - جيش رابع -
- المعركة تبدأ - الهجوم بالسلاح الأبيض -
- فداحة الحصار بين المعسكرين - توقف
- القتال - جننيل يصف المعركة - تفهم
- الفرقتين » .

ذكرنا في الفصل السابق أن جننيل أصدر أوامره في الثالث عشر من اكتوبر ١٨٩٩ بالزحف على كونو لهدفين : أولهما الانتقام لضحايا معركة تجباو واستعادة هيبة الفرنسيين في تلك البقاع والثاني فتح الطريق إلى بحيرة تشاد التي اتفق على أن تكون مكانا لتلاقي جننيل مع الحملة المرسله عن طريق منطقة السودان الوسطى تحت قيادة الكابتن قوليه Voulet والأخرى القادمة من بلاد الجزائر تحت قيادة القومندان لامي حتى تستطيع الحملات الثلاث بتكاملها وتوحيد جهودها القضاء على رابع نهائياً .

رتب جننيل زحفه على كونو بحيث تسير طواير المشاة بجوار نهر شارى حتى تتمكن من أن تعسكر مع القوات التي تحملها السفن النهرية في مكان واحد لتأمين هجوم العدر . ومع ذلك فقد اصطدم

جنيتل في زحفه هذا بكثير من العقبات فان ما كان يخشاه من انضمام الباجوريين إلى رابح قد حدث على صور متعددة أشعرته دائماً بأنه يسير في منطقة معادية وبين أناس لا يرحبون به ، فقد أخذ المرشدون الذين كانوا من بين الباجوريين يهجرون معسكره للانضمام إلى رابح كما كان الذين يقبلون الخدمة معه بدلاً من هؤلاء الهاربين لا يلبثون هم أيضاً أن يفروا منه حاملين أنباء قواته وتحركاته إلى معسكر عدوه رابح .

وعلى هذا النحو الشاق مضى زحف جنيتل نحو كونو حتى أصبح على مبعدة نحو عشرين ميلاً من معسكر رابح أمام تلال تجباو حيث طالعه الهياكل العظمية ، والجماجم المتناثرة والصناديق الخشبية المهشمة وخرابيش الرصاص الفارغة وغير ذلك من بقايا المعركة المخيفة التي دارت في ذلك المكان منذ شهر ثلاثة ، والذي كان على جنيتل مع ذلك أن يقضى به الليلة التي تسبق العاصفة .

فلما كان الصباح تقدم جنيتل بسفينته حتى أصبح على مرمى البصر من قوات رابح ثم بدأ تحت سمع تلك القوات وبصرها في إنزال مدافعه الثلاثة إلى البر دون أن تتعرض هي له أو تحس بوجوده فقد ظن رابح عند ما رأى السفينة ترسو بمفردها بأن من عليها هم كل القوة الفرنسية ولم يتنبه إلى وجود القوات البرية الأخرى التي كان وصولها قد تأخر قليلاً لأنها سلكت طريقاً

آخر تملكه الأعشاب غير الطريق المعتاد . وبهذا السكوت والصمت  
أتاح راجح لعدوه وقتاً كافياً أعد فيه قواته واختار لمدافعه مواقع  
ملائمة تماماً .

وكانت قوات راجح تتألف من وحدات متعددة كل واحدة  
منها تسمى « البيرق » وعلى رأس كل بيرق رئيس يميزه ثوبه  
الأبيض وعمامته البيضاء وحزام الجلد المعد للخرطوش الذى  
يحيط بصدرة . أما القوات الفرنسية فقد كانت تتألف تحت قيادة  
روبييلو من ثلاث فرق جعل الأولى فى المقدمة على شكل  
مدرجات وتليها الثانية بينما تؤلف الثالثة الاحتياطى الذى يحمى  
المؤخرة . وكان لراجح سفينتان الأولى تحت قيادة عثمان شيكو  
حاكم مدينة كونو والأخرى عليها مدفع أعد لمجاوبة نيران  
الفرنسيين بينما احتفظ بالمدفعين الآخرين ليصد بهما زحف المشاة  
وكانت هذه المدافع الثلاثة من بين غنائمه فى معركة تجباو  
كما ذكرنا سابقاً .

وبدأت المعركة أولاً بتبادل قذائف المدفعية وطلقت  
الرصاص بين المعسكرين اللذين كانت تفصلهما مسافة تبلغ حوالى  
الخمسة مائة متر . ولم تلبث فرقة الرماة فى جيش راجح أن تسلقت  
الأشجار وبدأت تنصيد القوات الزاحفة بسهامها ورصاص بنادقها  
بما كبد الفرنسيين خسائر جسيمة فى الوقت الذى كانت فيه فرقة



أخرى من الرماة قد تحصنت في خنادقها عند ميسرة الجيش وراحت تجيب بنيرانها على طلقات الرصاص التي كانت تنبعث من مؤخرة القوات الفرنسية وبهذا تمكن رابع من أن يحصر مقدمة العدو ومؤخرته بين وابل من نيران هؤلاء الرماة المدربين ممن يجيدون التصويب وإصابة الهدف من بعيد .

وبالرغم من أن مدافع الفرنسيين حاولت أن تجيب على هذا الحصار باطلاق قذائفها في عنف وشدة إلا أن ذلك لم يدم طويلا . فإن خطة رابع تلك كانت قد استطاعت في وقت قصير أن تهز صفوف الأعداء بالكثير من القتل والجرحى بينما مضت مدفعيته هي الأخرى التي لم تكن مهارة رجالها في إصابة الهدف بأقل من مهارة إخوانهم الرماة نصلي معسكر الفرنسيين نارا حامية مما اضطر الكابتن رويللو في النهاية إلى إصدار الأوامر إلى مدفعيته بالكف عن الضرب لتتيح الفرصة للشاة أن يتقدموا بالسونكي ليلتحموا برجال رابع المحصنين في الخنادق بعد أن أصبح مثل هذا الالتحام ضروريا لتجنب مزيد من الخسائر بفعل الرماة .

وكانت موجة الهجوم بالاسلح الأبيض شديدة الوطأة على قوات رابع التي اضطرت عندئذ إلى ترك خنادقها والنهقر نحو المدينة . وواصل الفرنسيون الهجوم على القوات المنهقرة حتى بلغوا المساكن المصنوعة من القش فاشتعلوا فيها النيران التي راحت



القوات الفرنسية تنساق ذليلة أمام أسوار كونو

تمتد في سرعة من بيت إلى بيت بينما أخذت الحيوانات من الخيول  
والمواشي نفر مذعورة هنا وهناك مما زاد من هول المعركة وقد  
اختلفت فيها رائحة البارود برائحة اللحم المشوي وأزيز الرصاص  
وقصف المدافع بصياح الساء والأطفال ممن أحاطتهم النيران من  
كل جانب ، وتصاعد في الجو مع إناث الجرحى والمصابين صهيل  
الحيوانات المذعورة الخائفة .

ومضى القتال في عنف متزايد حتى بلغ منطقة من المدينة حيث  
استطاعت قوات رابع أن تقيم سوراً من جذوع الأشجار تحصنت  
خلفه ومضت تصب نيرانها على الأعداء يعاونها أحد المدافع الذي  
اتخذ من سفينة جننيل ذاتها هدفاً له .

وعند ما انتصف النهار كان بعض الرماة في جيش رابع قد  
استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى قلعة في شمال المدينة نشرف على  
مواقع الفرنسيين ومن هناك استأنفوا تصويب سهامهم ورصاص  
بنداقهم على القوات المهاجمة بينما ظهرت في النهر بعض السفن الصغيرة  
التي راحت هي الأخرى تتبادل النيران مع سفن جننيل بالرغم من  
أن المدافع المنصوبة فوقها استطاعت أن تحصد منهم عدداً وافراً وكان  
من بين من سقطوا من القتلى عثمان شيكو نفسه .

لم يلبث القتال بعد ذلك أن فقد بعض حدته ريثما تتزود قوات  
المعسكرين بذخيرة جديدة ثم استؤنف مرة أخرى أشد ما يكون

عنفاً وإصراراً ، ودفع رويبلو بالقوات الاحتياطية في المعركة بعد أن أصيبت الفرقتان الأولى والثانية بخسائر فادحة . وكان رابع ما زال محتفظاً بموقعه بوسط المدينة وحوله المئات من رجاله الذين قرروا ألا يتخطوا عن نصره قائدهم إلا بعد أن تسفك آخر قطرة من دماهم .

وتقدم المارشال ، بوسيل دي ديه Possel-Deydier ، على رأس فرقة محاولاً الانقاص على هؤلاء الجبابرة فقتل . وحل محله الملازم جولاندواكن صفوفه لم تلبث أن تراجعت لتحتضن بمساكن القش الباقية فتقدم عندئذ الكابتن جوليان بفصيلته ولكنه لم يستطع هو الآخر بعد قتال عاصف استمر ثلاث ساعات أن يزحزح رابعاً عن موقفه وإن كان قد تمكن من منعه من الاتصال بباقي قواته أو انضمام أحد من رجاله إليه .

وعندما بلغت الساعة الرابعة بعد الظهر كان القتال المرير الذي استغرق ثمانى ساعات طويلة قد هدق قوى الفريقين واستنزف كل مافي طاقة البشر من جهد . وكانت الخسائر في المعسكرين على السواء من القتلى والجرحى قد بلغت رقماً مخيفاً : فقد فقد رابع عدداً من خيرة قواته ورؤساء جيشه الذين كان يحبهم ويعتز بهم مثل عثمان شيكو والفق أحمد وبو باكر بينما خسر جنفيل هو الآخر نخبة من أشجع ضباطه كما جرح قائده رويبلو جرحاً بالغاً هذا

غير المئات من الجرحى الذين اكنظت بهم سفينته وما أصاب مدفعيته من خسارة بالغة في الرجال والعتاد حتى لقد تلف أكثر مدافعه وأصبحت غير صالحة للاستعمال بعد ذلك .

أمام هذه الخسائر الجسيمة كان لا بد أن يتوقف القتال وأن تنتهى المعركة دون أن تؤدي إلى نتيجة حاسمة لصالح أى من الفريقين . ولقد كتب جنجيل بعد ذلك يقول فى معرض التحدث عن تلك المعركة الرهيبة :

... أما موقعة كونو فقد كانت من أفظع المعارك التى خضناها . ومازلت أذكر حتى اليوم عند ما جن الليل ولهب الحرائق ما زال يلتهم المساكن ويصبغ الأفق بلون الدم بينما خيم علينا سكون ثقيل لم يكن يقطعه بين الفينة والأخرى سوى أنين الجرحى ونحيب الأحياء وهم سيكون موتاهم .

، ولقد حاولنا ليلتها أن نتناول الطعام ولكن التعب كان أشد ألماً من الجوع وكان النعاس يغالبنا فى إصرار حتى غلبنا أحياء فمنا نوماً عميقاً حتى اليوم الثانى واستيقظنا فى الصباح مبكرين ولم يكن فى حوزتنا غير مدفعين صالحين للاستعمال وذخيرة لا تكاد تكفى لأكثر من ستين خرطوشة لكل رجل . أما المؤونة فكانت قد أوشكت على النفاذ ولم يعد لدينا منها ما يكفى لغير أربعة أيام فقط بينما تكدم الجرحى فى البأخرة

وأصبحت السفن الأخرى في حاجة إلى إصلاح عاجل .  
ولكل هذه الأسباب قررت التقهقر والعودة إلى بلدة فورت  
ارشمبولت التي بدأنا منها زحفنا . . . (١)

\* \* \*

قرر جننيل اذن أن يتراجع عن كونو ليضمده ما أصاب قواته  
من جراح في المعركة التي انتهت عدداً كبيراً من الضحايا دون أن  
تؤدي إلى نتيجة حاسمة في ذلك الصراع الذي يضطلع به ضد رابح .  
وبالرغم من أن تلك الحقيقة كان يدل عايتها فعلا انسحابه هذا  
إلا أنه استطاع مع ذلك أن يخدع الباجورمين من أهالي تلك  
البلاد وأن يظهر أمامهم بمظهر القسوى المنتصر ليرفع بذلك من  
روحهم المعنوية ويكسبهم في صفه من جديد . ولقد نجح فعلا في  
ذلك حتى لرى هؤلاء أقل عداوة له في تقهقره عن كونو منهم  
أثناء تقدمه نحوها ، كما لرى أيضاً سلطانهم جوارنج الذي كان  
لا يزال بسوقه الأمل في أن يعيده الفرنسيون إلى عرشه يعاود الاتصال  
به عارضاً المزيد من صور صداقته له مقدماً إليه ما يحتاجه من  
المؤن والنسيجات . وكان هذا في الواقع هو كل ما استطاع  
جننيل أن يكسبه من معركة كونو وهو كسب استطاع أن يتعزى  
به عن النصر الحاسم الذي كان يحلم بأن يحوزه ضد رابح . .

---

(١) كتاب سقوط امبراطورية راج ، المؤلفه إميل جننيل صفحة ١٦٣ - ١٦٤

أما رابع فإن موقفه لم يكن أقل سوءاً من موقف خصمه ..  
كانت كونو قد استحوطت إلى كومة من الخرائب والانقاض  
ففقدت بذلك أهميتها كقاعدة لتوابعه ، كما كان هو في حاجة إلى  
الارتداد نحو قواعد في الشمال حتى يستطيع أن يستعد للجولة  
الثانية استعداداً يتلاءم مع قوة العدو الذي يناضله . لذا فإنه لم  
تكد تمضي أيام قليلة على انسحاب جنائيل حتى شرع هو بدوره في  
نقل جرحاه عن طريق النهر والرجوع بجيشه إلى لوجون ودكوة  
بالرغم من أن ذلك العمل قد ترك نهر شارى في الواقع تحت  
سيطرة جنائيل تماماً كما أتاح للأخير فرصة التقدم بسهولة نحو بحيرة  
تساد حيث كان قد تقرر أن يلتقي بالحملات الأخرى التي بدأت  
تتحرك وتتجمع لمواجهة رابع في معركة أخيرة ..

## ثلاث حملات ضد يرايح

« حملة جنزيب - الحملة الافريقية - الحملة  
الصعراوية - كاسورى تسقط - جنزيب  
ينضم إلى حملة لامي - الميانه تتحالف مع  
أعداء يرايح - الشيخ عمر . »

سبق أن قدمنا في الفصول السابقة كيف أن الحكومة الفرنسية  
ما كادت تبلغها أنباء المعارك التي شنها يرايح ضد حليفها سلطان  
الباجورى ، وهى المعارك التي رأيناها تنتهى باحتلال يرايح لعاصمة  
تلك الولاية وتنمخض عن تأديب للقبائل التي تحالفت مع جنزيب  
أثناء رحلته الأولى فى تلك البلاد ، حتى فزعت من وجود تلك  
القوة النامية وتحققت من خطرها على مشروعاتها الاستعمارية  
فى وسط أفريقيا وقررت القضاء عليها قضاء نهائيا فى حرب سافرة  
قبل أن يزداد خطرها أو تتشعب أطماع ذلك القائد فيعمل بعد أن  
استتب له الأمر فى تلك الامبراطورية الواسعة التى تشمل عدداً  
من الولايات الهامة الفنية على الوثوب على مستعمرات فرنسا  
نفسها فى تلك المنطقة واخضاعها لنفوذه .  
لهذا كانت حملة جنزيب ، أو حملة نهر شارى كما عرفت بذلك



فيما بعد لتمييزها عن باقي الحملات التي شاركت في القضاء على رابع ..  
ولقد رأينا تلك الحملة تصطدم مع رابع في معركة تجباو وكونو  
وهما من أعنف المعارك التي خاضها الاستعمار الفرنسي في أفريقيا ،  
باستثناء معاركه في الجزائر وتونس ، والتي أيد فيها الكثير من  
قواته دون أن يستطيع مع ذلك أن يحسم الأمر على صورة  
واضحة . ولعل الحكومة الفرنسية كانت تظن أن القضاء على رابع  
لن يعدو أن يكون نزهة حربية ممتعة يتسلى فيها جنثيل بمدافعه  
وبواخره النهرية باصطياد المواطنين البدائين ، وأن هؤلاء لن  
يكادوا يرون أقدام الاستعمار تطأ بلادهم حتى ينخروا أمامها ساجدين  
مرحين . والواقع أن الخيانات التي ارتكبها كل من السنوسي  
والسلطان جورانج وتحالفهم مع جواسيس الاستعمار ثم إرسالهم  
مندوبين عنهم إلى فرنسا ، كل ذلك قد شجع ولا شك وزارة  
المستعمرات في باريس على أن تظن أن القضاء على رابع في مثل  
تلك الظروف لن يكلفها كثيراً . .

ولكنه كلفها كما رأينا .. ولم يكن المشولون في فرنسا في حاجة  
بعد ذلك إلى وقت طويل ليدركوا أن حملة نهر شارى وحدها  
لن تستطيع أن تخلصهم من رابع . بل إن هذه الحملة نفسها لو تركت  
وحدها لتواجه عدوهم فإنها لن تلبث أن تبعد بعد معركتين  
أو ثلاث .

أمام تطور الأمور على ذلك النحو كان طبيعياً أن تصدر الأوامر إلى القوات الفرنسية بالسودان الوسطى بالتقدم صوب بحيرة تشاد للانضمام إلى حملة جنزبل ومعاونتها في مهمتها في الوقت الذي كانت فيه حملة أخرى سميت فيما بعد باسم الحملة الصحراوية تنقدم من بلاد الجزائر تحت قيادة ضابط فرنسي يدعى لامي للمشاركة في نفس الغرض .

وهكذا اجتمعت ضد رابع حملات ثلاث . ١

\* \* \*

والآن .. كيف التقت هذه القوات المتفرقة في بلدة كاسورى حيث دارت بعد ذلك المعركة الفاصلة ؟ .

بدأت الحملة القادمة من السودان الوسطى ، والتي عرفت باسم الحملة الأفريقية ، سيرها من بلدة « ساي » ، وقد أسندت قيادتها إلى ضابط فرنسي يدعى « جوستاف قوليه » . غير أنها لم تكدر تنقدم في زحفها قليلاً حتى بلغ السلطات الفرنسية أن جوستاف قوليه هذا قد ارتكب أعمالاً فظيعة لا مبرر لها أثناء تقدمه فصدرت الأوامر بعزله عن قيادة الحملة وتعيين « الكولونيل كلوب » بدلاً منه . ولكن قوليه ما كاد يبلغه نبأ عزله حتى أقصى عن الحملة سائر الضباط المناوئين له بأن أعادهم إلى بلدة « ساي » ثم تقدم على رأس حملة البنادق لملاقاة القائد الجديد . ودارت بين الاثنين

معركة قصيرة انتهت بمقتل كلوب ولكن قوات قوليه لم تلبث بعد ذلك أن تمردت عليه وقتلته هو الآخر وانضمت إلى الملازم « باليه » الذي أعاد الأمور إلى نصابها وقضى على حركة التمرد والعصيان التي كادت تعطل مهمة الخطة الأساسية .

بعد ذلك تابعت الخطة زحفها من جديد تحت قيادة الملازم جولاند الذي أسرع في اتجاه بحيرة تشاد حتى بلغ حدود مدينة « جولفي » قبل أن يحس بمقدمه أحد ومن هناك أرسل إلى جننيل في قاعدته بفورت ارشبولت أحد ضباطه ينبئه بوصوله . وكان جننيل في ذلك الوقت قد استطاع أن يتفق مع السلطان جورانج على أن يحصل منه على الخيالين ودواب النقل اللازمة لحمل المتونة والذخائر فلما جاءته أنباء وصول « جولاند » وكان قد فرغ من تجميع الذخائر والأسلحة اللازمة لختمه بدأ سيره في ١٣ مارس ١٩٠٠ من بلدة فورت ارشبولت متجها نحو الشمال للإلتقاء به وبقوات لامي التي كانت قد بلغت عندئذ إقليم كانم شرقي بحيرة تشاد .

ولم يكن تقدم جننيل سهلا هذه المرة أيضا . . فقد تعاونت ضده عناصر الطبيعة العاصبة كما كان نقل المتون والذخائر يجري على صورة بطيئة نمتة نديجة لسوء حالة الخيالين الذين قدمهم جوارنج وضعف الدواب المستعملة في هذا الغرض .

وبينما مضى جننيل يتقدم نحو الشمال على هذا النحو الشاق

كان لامي قد تابع تقدمه حتى التقى بالحملة الأفريقية بالقرب من جولني حيث كان يقيم فضل الله وتحت امرته حوالى الألف رجل تبلغ عدة سلاحهم نحو ستمائة بندقية .

وحاول لامي أن يستولى على جولني ولكن المناوشات الأولى التي دارت بينه وبين فضل الله لم تلبث أن كشفت له عن صعوبة ذلك الهدف . فقرر الزحف على كاسورى الواقعة إلى الجنوب منها واحتلالها حتى يستطيع بذلك أن يقطع خطوط مواصلات فضل الله بقاعدة الجيش في دكوة ويضطره إلى إخلاء مدينة جولني .

ولم تقاوم كاسورى مقاومة جديّة .. ونجحت خطة لامي : فان فضل الله لم يلبث أن اكتشف خطورة مركزه بعد سقوط كاسورى التي تتحكم في خطوط تموينه ومواصلاته في يد الأعداء فشرع في الإنسحاب من جولني والاتجاه إلى لوجون جنوبي كاسورى . وفي طريق انسحابه عسكر بعض الوقت تجاه كاسورى وعلى مبعده خمسة أميال منها بقصد التربص بدوريات الفرنسيين ومنعها من ارتياد ما حولها من المناطق أو جمع المعلومات عن رابع وقواته ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً كلف الأعداء كثيراً من الرجال والعتاد وأشعرهم بأنهم محاصرون فعلا في ذلك الموقع الاستراتيجي الهام .

وكان رابع في عاصمته دكوة عندما بلغته كل هذه الأحداث

المتلاحقة السريعة التي لم تفلح بالرغم من متابعتها على هذا النحو العاصف في أن تفاجئه أو تأخذه على حين غرة . فقد كان منذ أن جرت موقعة كونو يتوقع أن يعارد الفرنسيون الهجوم عليه ولذلك لم يكف من يومها لحظة واحدة عن الاستعداد للجولة الثانية بتجميع قواته وتنظيم صفوفها وجلب الأسلحة والذخائر لها . فما كاد يعلم بسقوط كاسوي حتى غادر بجيشه العاصمة واتجه لحصار لامي بها .

والواقع أن إسراع رابع لملافاة لامي كان عملاً بارعاً تماماً . فقد كانت خطة رابع أن يفرغ من لامي قبل أن تنضم إليه قوات جنريل . ولكن هذا العمل لم يلبث أن فقد أهميته عندما اقتصر رابع في حصاره لكاسوري على ناحية البر وعدم إسراعه باقتحامها بعد ذلك وبهذا أضعاف وقتنا ثمينا وأتاح الفرصة لجنريل لأن يصل عن طريق النهر بامداداته وذخائره وخبرته إلى البلدة التي كان قد تكسبها رجال بلا عتاد أو مؤن أو أي معلومات عن عدوهم الذي يقاقلونه .

o o o

بلغ جنريل في تقدمه بلدة دوجومان، في ١٥ ابريل ١٩٠٠ فوجد في انتظاره الرسالة التالية من لامي يشرح له فيها الموقف في تلك الفترة الحاسمة :



فرسان رابع تفتحهم مواقع الفرنسيين



• طلبت إلى أن أرسل اليكم قوة لملاقاةكم في بوجومان يوم  
١٥ إبريل ١٩٠٠ ولكن لما كان ميدان كاسورى يعتبر في الحالة  
الراهنه في حالة حصار فانه من الممنوع ابتعاد الدوريات إلى مسافات  
تتراوح بين ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ مترا بعيداً عن الميدان خصوصاً  
بعد أن هوجمنا أمس وأول أمس . وموقع هذه المدينة من الطراز  
الأول من الوجهة الاستراتيجية ويجب أن نختارها قاعدة لعملياتنا  
لأنها تسيطر في الوقت نفسه على نهر شارى ومواقع لوجون  
وكرنك وجولفى ودكوة . وقد كان في الإمكان في ١٠ مارس  
الماضى الاستيلاء على بلدة لوجون إذا أردنا ولكن العائق الأكبر  
الذى منعنا من ذلك هو خوفى من تجزئة البعثين التابعين لى .  
ولقد بلغنى صباح اليوم من الانباء ما يفيد بأن مثل هذه المأمورية  
قد أضحت مستحيلة في الوقت الراهن وان تكتل قواتنا واجتماعها  
في جهة واحدة قد أصبح الآن من ألزم الامور فان راجعاً لما علم  
بقرب مجيئكم رأى أن يترك معسكره في بلدة كالاموليه، Kala-Monté  
وأن يستدير نحو كاسورى من الغرب بعد أن انضمت إليه قواته  
في كرنك ولوجون ووجهته بعد ذلك من غير شك هي تطويقنا  
من الضفة الشمالية لنهر شارى : وإن المناوشات التى حدثت  
في الأيام الثلاثة الماضية تحت أسوار بلدة كاسورى بيننا وبين

رابع كان الغرض منها هو إخراجنا من هذا الموقع وتعرضنا  
للوقوع في كمين مما يؤكد كل استنتاجاتي بخصوص خطة رابع ..،<sup>(١)</sup>  
كان هذا في الواقع هو بجمال الموقف في جهة كاسورى . وكان  
رابع عندما بعث لامي بتقريره هذا مشغولا باقامة خط دفاعي  
في شمال غرب المنطقة لكي يقيم معسكره في أمان وإن كان هذا  
لم يمنعه من مناوشة القوات المحاصرة في كاسورى مرسلا فرسانه  
لتصيد دورياتهم وتكبيدها الخسائر في الأرواح والمهمات مما جعل  
لامى يحس بأن الحالة التي يواجهها خطيرة جداً وأن أقل خطأ  
يرتكبه قد يجر عليه من النتائج والأحداث ما لا يعلم أحد مداه .  
أسرع جنريل عندما تسلم تقرير لامي وأطلع على حرج مركزه  
بالتقدم للحاق به من قبل أن يبدأ رابع بهجومه . ولكن موقف  
جنريل لم يكن هو الآخر خالياً من الخطورة فقد كان عليه لكي  
يبلغ كاسورى أن يمر ببلدة « موليه » المواجهة للوجون حيث  
يعسكر فضل الله بقواته وكان هذا قد عرف بتقدم جنريل فأقام  
دوارية من الفرسان على النهر لرصد موعد وصوله .  
ولكن الحظ ساعد جنريل هذه المرة .. فقد تصادف عند  
وصوله إلى تلك البلدة ان التقت دوارية فضل الله بجماعة من  
الباجوريين المسكرين على الشاطئ الأيسر من النهر فانشغلت

(١) « سقوط امبراطورية رابع » - مؤلفه إميل جنريل صفحة ٢٠٠



بمطاردتها وتشتيتها وغفلت بذلك عن قوات جنزبل التي استطاعت  
مستعينة بالظلام والأعشاب الكثيفة النامية على شاطئ النهر أن  
تتقدم دون أن يلحظ تقدمها أحد من رجال فضل الله .

ولقد كان ذلك الخطأ الصغير الذي وقعت فيه داورية فضل  
الله ، والذي مكن جنزبل من النسل في سهولة وبسر من أهم  
الاحداث التي وقعت في تلك الفترة الهامة فقد استطاع بعدها جنزبل  
أن يمضي في تقدمه دون أن يخشى شيئا وأن يبلغ مدينة كاسورى  
في سلام فينضم إلى قوات لامي بها وبذلك اجتمعت في تلك المدينة  
الهامة الحملات الثلاث التي أقبلت من جهات عدة متفرقة بالرغم  
من كل ما صادفها من عقبات .

ولعل خيانات السلطان جورانج وشبيهه الشيخ عمر سندا أكبر  
أبناء السلطان هاشم حاكم بورنو السابق والذي كان يطمع في  
استرداد مملكة أبيه من رابع . . هذه الخيانات هي التي لعبت الدور  
الأول في إتمام ذلك الحدث الذي اعتبره جنزبل شيئا لم يسبق  
حصوله من قبل في تاريخ حركة الاستعمار في أواسط أفريقيا ،  
وفي تسهيل تجمع تلك القوات الطائفة أكثر مما لعبه العزم والتصميم  
من جانب القوات الفرنسية . والواقع أن راجا لم يقف ضد  
الاستعمار الفرنسي فقط ولم يحارب معامع الغزو الأجنبي فحسب  
ولمّا حارب أيضا ووقف ضد مطامع اثنين من السلاطين لم يكن

يهمهم من شئون بلادهم وهي تتعرض لنخبة الاستعمار الكبرى سوى  
أن تتاح لهم الفرصة للجلوس ثانيا على عروشهم مهما كلفتهم هذه  
الفرصة من ثمن . وفي سبيل تحقيق ذلك الهدف لم يتردد واحد  
منهم في أن يضع نفسه ورجاله في خدمة الغزاة الأجانب وأن ينصر  
جيشا دخيلا على جيش رابع دون نظر إلى مصلحة الأهالي أو إلى  
مستقبل عرشه نفسه الذي كان انتصار القوات الفرنسية يعنى في  
الواقع ضياعه إلى الأبد . .

ولعل القارىء الذى تتبع معنا فى الصفحات السابقة المساعدات  
التي كان يبذلها السلطان عبدالرحمن جورانج لمساعدة جنزيرل وتزويده  
خلال زحفه الطويل بالمؤن والرجال، لعله أن يسأل: هل كانت عودة  
ذلك السلطان الضعيف الخائن الذى أحرق عاصمته يديه وشرده  
مواطنيه ومكن الأجانب من رقابهم إلى عرش الباجورمى ثانيا  
تعنى بالنسبة لسكان تلك المناطق حكما أصح وعدالة أكثر استقرارا  
من حكم رابع وعدالته . ؟

لا مرأه فى أن الاجابة على تساؤل كهذا بعد أن شهدنا من  
خيانات ذلك السلطان الشئ الكثير ان تكون عسيرة أو غامضة..  
فان الحاكم الذى يستمد سلطانه من رماح الاستعمار ويسند عرشه  
على حراهم يحكم على نفسه بأن يكون خادما لاسادته الذين منحوه  
السلطان عدوا لأعدائهم حليفا لحلفائهم . . وهل عدو الاستعمار

يهمهم من شئون بلادهم وهي تتعرض لمنحة الاستعمار الكبرى سوى  
أن تتاح لهم الفرصة للجلوس ثانيا على عروشهم مهما كلفتهم هذه  
الفرصة من ثمن . وفي سبيل تحقيق ذلك الهدف لم يتردد واحد  
منهم في أن يضع نفسه ورجاله في خدمة الغزاة الأجانب وأن ينصر  
جيشا دخيلا على جيش رابع دون نظر إلى مصلحة الأهالي أو إلى  
مستقبل عرشه نفسه الذي كان انتصار القوات الفرنسية يعني في  
الواقع ضياعه إلى الأبد . .

ولعل القارىء الذى تتبع معنا فى الصفحات السابقة المساعدات  
التي كان يبذلها السلطان عبدالرحمن جورانج لمساعدة جنتييل وتزويده  
خلال زحفه الطويل بالمؤن والرجال، لعله أن يسأل: هل كانت عودة  
ذلك السلطان الضعيف الخائن الذى أحرق عاصمته يديه وشرذ  
مواطنيه ومكن الأجانب من رقاہم إلى عرش الباجورمى ثانيا  
تعنى بالنسبة لسكان تلك المناطق حكما أصح وعدالة أكثر استقرارا  
من حكم رابع وعدالته . ؟

لا مراء فى أن الاجابة على تساؤل كهذا بعد أن شهدنا من  
خيات ذلك السلطان الشئ الكثير ان تكون عسيرة أو غامضة..  
فان الحاكم الذى يستمد سلطانه من رماح الاستعمار ويسند عرشه  
على حراہم يحكم على نفسه بأن يكون خادما لساته الذين منحوه  
السلطان عدوا لأعدائهم حليفا لحلفائهم . . وهل عدو الاستعمار

سوى الشعب نفسه ، الشعب الذى تسلب أوقاته ويصلب أبنائه  
وتقدم حياته قربانا للاستغلال والاستعباد . .

مثل هذا الحاكم الذى عرف الشرق من أمثاله الكثيرين  
لا يمكن اذن أن يدخل فى حسابه مصلحة شعبه ورفاهيته . فاذا قام  
رجل كرابح لا يستمد سلطانه إلا من إرادة شعبه ، ولا تحميه  
إلا الرماح التى تهزها سواعد رجاله ، إذا قام رجل كهذا عرف  
الشرق من أمثاله الكثيرين أيضا ليتصدى لمفاسد حاكم كهذا  
وما تجره على البلاد من بلاء الاستعمار فان التاريخ خليق بأن يحفظ  
له بالرغم مما قد يكون له من أخطاء أخرى مكانا ممتازا إلى جوار  
الأبطال الذين خلدتهم كفاحهم من أجل حريات بلادهم وسلامتها..

ولعل من أوقع ما يختتم به حديث كهذا من قبل أن نقدم  
 للقراء فى الفصل القادم وصفا لنهاية رابح وانهايار امبراطوريته أن  
نقول إنه فى الليلة التى سبقت معركة كاسورى الفاصلة.. وفى الوقت  
الذى كانت فيه الاستعدادات فى المعسكرين المتناحرين تقوم على قدم  
وساق ، جلس السلطان جورانج بجسده الضخم وبثيابه الفاخرة  
يتقاسم مع الشيخ عمر ، ذلك الرجل القصير القامة الذى يرتدى  
دثارا بسيطا يتكون من جلباب وسروال من القماش الخفيف الصنع  
ويضع فى قدميه نملا خفيفاً أصفر اللون وعلى رأسه طاقية بيضاء  
قدرة ، تركة رابح وكل همهما منها جموع النسوة التى سيخافها رابح

من بعده والتي كان جورانج يحاول أن يستأثر بها مدخلا في روع  
الشيخ أنه أقدر منه على إصلاح أمور النسوة وعلى القيام بواجباتهن.  
ولم يكن من السهل طبعا أن يقتنع الشيخ عمر الذي قضى فترة  
طويلة بعيدا عن الحكم والسلطان مع زوجة واحدة تقدمت بها  
السن بأن السلطان جورانج أقدر منه على التمتع بزايا النساء فطالت  
بينهما المناقشات والمفاوضات طوال الليل بينما انهمك جنتيل ولا مى  
على مقربة منهما يضمن خطة المعركة لليوم التالي وبينما كان رابع  
في المعسكر الآخر ساهرا بين رجائه يحنهم على الثبات ويذكرهم  
بما وعد الله به عباده المجاهدين والأحرار من النصر والثواب . .

## انهيار امبراطورية راج

« الاستعداد المعركة - نفوق راج - اصابة  
لامى - خطوط راج تنداسى - موت لامي  
رصاصة فى القلب - جنفيل يرثى راج - جهود  
فضل الله - انهيار امبراطورية راج »

فى الساعة السادسة من صباح يوم ٢٢ إبريل ١٩٠٠ اجتمعت قوات الحملات الثلاث الموضوعه تحت قيادة لامي خارج مدينة كاسورى لمهاجمة معسكر راج . وكان راج قد فرغ فى الليلة السابقة من تنظيم قواته على صورة مربع مدرج كشكل الهودج طول كل ضلع من أضلاعه ثمانمائة متر تحيط به مساحة من الأرض يبلغ ارتفاعها حوالى المتر تقريباً تقوم مقام الحصن لحماية مشاته من رصاص الأعداء . أما لامي فكان قد قسم قواته إلى فرق ثلاث : الأولى وتتكون من جنود البمته الصحراوية وقد وكل اليها مهمة الالنفاف حول جناح راج الأيسر ، والثانية وتتكون من جنود الحملة الأفريقية ومهمتها مهاجمة الجناح الأيمن ، والثالثة وتتألف من جنود حملة نهر شارى وهذه احتفظ بها تحت قيادة روبيلو لتكون الاحتياطى الذى يلجأ اليه عندما تتمضى الحالة .



القومندان لای

هذا بالإضافة إلى قوات الباجورمين التي كان يبلغ عددها حوالي  
الستمانه من حملة البنادق ومعهم مائتان من الفرسان والتي لم تشارك  
في المعركة أبداً إذ أبى أفرادها أن يطلقوا نيرانهم على رجال راجح  
الذين تجمعهم وإياهم صفة الجنس بالرغم من أن لامي كان قد وكل  
إليها القيام بالهجوم المواجه على حصن راجح ليتركها تتحمل  
عنف الصدمة الأولى .

تحركت قوات لامي حتى أصبحت على مبعده ميل من معسكر  
راجح . وهناك التقت ببعض رجال راجح بمن كانوا يقطعون الحشائش  
الخضراء لتغذية خيولهم فاطلق عليهم رجال الفرقة الأفريقية  
النار فسارعوا عندئذ بالارتداد نحو أسوارهم وكان هذا إيذاناً  
ببدء المعركة .

أجاب راجح على هجوم الفرقة الأفريقية بإطلاق النار على طول  
الخط فضاعفت الفرقة بمجودها وتقدمت نحو خطوط راجح  
في ببطء حتى بلغت الأرض المكشوفة الواقعة أمام حصنه  
فوقعت بذلك فريسة سهلة لرصاص رجاله الذين أوقعوا  
بها خسارة فادحة اضطرت لامي في ذلك الوقت المبكر ،  
وبعد أن رفض الباجورميون المشاركة في القتال ، إلى الاستعانة  
بالاحتياطي الذي صدرت إليه الأوامر بالتقدم لأيد هجوم  
الفرقة الإفريقية .





القومندان لای و قد أصیب بجرح ممیت فی امریکہ کابوری

وبالرغم من أن مدفعية الفريقين كانت قد بدأت في ذلك  
الحين تقذف حممها إلا أن الموقف مع ذلك لم يتغير كثيراً فقد  
صمدت قوات رابح في خطوطها واستطاعت أن تحطم الموجة  
الأولى من هجوم الفرنسيين وأن ترد القوات المتقدمة على أعقابها .  
ساد جو المعركة بعد هذا هدوء نسبي واقتصر نشاط المدفعية  
على بعض الطلقات بين حين وآخر فلما كان وقت الظهيرة عاود  
الفرنسيون الهجوم وحمل لواءه هذه المرة جنود حملة نهر شارى  
الذين استطاعوا أن يفتحوا ثغرة في خطوط رابح تدفقوا خلالها  
إلى داخل الأسوار واشتبكوا مع المدافعين في مذبحه مروعة  
بالسلاح الأبيض لم ينج منها حتى الأطفال والنساء . واضطر  
رابح تحت وطأة هذا الهجوم إلى الإنسحاب بقواته خارج الحصن .  
الذى لم يلبث أن دخله الفرنسيون وعلى رأسهم قائدهم لامي وقد  
ظنوا أنهم فرغوا من عدوهم وكسبوا المعركة نهائياً بذلك القدر  
من الخسائر .

ولكن رابح لم يكن بالذى يخضع لهزيمة كنتلك فأعاد تنظيم  
قواته من جديد وكر على الحصن محاولاً انتزاعه من يد الأعداء .  
ودارت معركة أقسى من الأولى وسقط لامي وقد أصابته رصاصة  
في صدره ، وبذل رابح من العناد والرغبة في الثأر أقصى ما يستطيع  
ومن حوله رجاله البواسل وقد أقسموا على أن يدفعوا آخر نسمة

من حياتهم فداء لقائدهم الذى قادهم من قبل إلى النصر فى معارك عديدة مظفرة ، ولكن كل ذلك الجهد لم يمنع النهاية المحتومة من أن تطل برأسها الأسود فوق مصير راجح ورجاله المخلصين .

كانت القوات الفرنسية بوجودها داخل الحصن تتمتع بمرکز ممتاز فى الوقت الذى كانت فيه المعركة الأولى قد استنزفت قوى راجح وكبدته خسائر فادحة فى القوات والعتاد . وبالرغم من أنه استطاع فى هجومه الثانى أن يوقع بالفرنسيين خسائر جسيمة كان على رأسها إصابة قائدهم بذلك الجرح المميت إلا أن جهوده قاربت نهايتها أخيراً عند ما أصيب هو الآخر بأكثر من جرح خطير لم يقو بعدها على مواصلة القتال فانطرح على الأرض بين جثث القتلى والجرحى من رجاله .

وفى الوقت الذى رقد فيه الكولونيل لامى بجرحه المميت فى خيمة راجح يعانى سكرات الموت فوق فراش عدوه ، كان جنود الفرقة الأفريقية قد مضوا يواصلون القتال خارج الأسوار مع قوات راجح التى كان نظامها قد بدأ يختل تماماً ويطلقون النيران على من بقى حياً من الجرحى .. وأطلق أحد الجنود الأفريقيين رصاصة على أحد هؤلاء الجرحى .. واستقرت الرصاصة فى موضع القلب تماماً فانكفا الجريح فوق التراب وقد فارقت الحياة .

وعند ما اقترب الجندي من ضحيته وأدار الوجه الميت  
ليبدأ عملية سلبه إذ به يرى نفسه وجهاً لوجه مع رابع وقد  
أغمضت عيناه إلى الأبد والجرح الذي أصابه قد راح يقطر دماً ،  
ووجهه الأسمر الشاحب بتقاطيعه القوية المعبرة قد غطاه التراب  
وان لم يستطع الموت على قوته أن يفقدها ما أنصفت به أنساء  
حياة صاحبها من تعابير الشجاعة والجسارة والإقدام .

\* \* \*

انتشر خبر مقتل رابع سريعاً .. وسرى سرعان النار في  
الهشيم حتى بلغ في لحظات قلائل مسامع جندييل وهو جالس تحت  
أقدام لامي الذي كانت الحياة قد فارقتة هو الآخر ، فلم يصدق  
لأول وهله إذ طالما سمع هذا الخبر مئات المرات قبل ذلك  
فدكان في كل مرة لا يعدو أن يكون إشاعة كاذبة تطلقها السنة  
خصومه الذين كان يلذ لهم أن يتخيلوه ميتاً بعد أن يعجزوا في  
دنيا الواقع عن تحقيق تلك الأمنية الغالية بأيديهم ..  
ولكن أبناء مماتل رابع هذه المرة كانت تبدو أقوى من أن  
تكون مجرد إشاعة ، فأرسل في طلب جثته للتحقق منها ، ولم  
تكدمتمضى بعد ذلك عشر دقائق حتى وضعوا عند أقدامه رأساً  
مقطوعة تنزف دماً واستطاع أكثر من رجل وعلى رأسهم خادم  
رابع نفسه التحقق من أنها هي رأس ذلك البطل الكبير .



رأس رابع .. ووحشية الاستعمار

ولم يستطع جنجيل أن يمنع نفسه من أن تهتز في انفعال عنيف أمام تلك الرأس الملقاة عند أقدامه وقد عاشت بها عقلية حربية سامية كان لا بد للتغلب عليها من أن يجتمع الألوف من الرجال من كل ناحية فلا يستطيعون مع ذلك أن ينالوا منها قبل أن يكبدهم ذلك الهدف افطع الخسائر وأفدحها ..

هذه العبقرية هي التي دفعت جنجيل عدوها الأول إلى أن ينحني إعجاباً وخشوعاً أمام الرأس التي عفرها التراب وأن يكتب في مذكراته يقول :

« إن هذا الرجل الذي تقطر رأسه دما تحت قدمي هو الشجاع الذي كان يجب على الأقدم أن نحفظ له حياته . ولقد كنت أود لو سقط حيا بين أيدينا لندخره من الموت ولكنها ارادة القدر .. لأنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في هذا البطل الذي دامت فتوحاته وانتصاراته طويلا وهو يقود الآلاف الرجال الذين ملأوا أواسط أفريقيا متحدئين بفتوحاته وجرأته وشجاعته ..» (١)

ويبدو أن جنجيل قد أحس بالوحشية والخسة التي صاحبت قطع رأس راجع بعد موته والتمثيل بجثته فأراد أن يرد عن نفسه ذلك العار بقوله إنه كان يود لو استطاع أن يحفظ لراجع حياته

---

(١) « سقوط امبراطورية راجع » لمؤلفه اميل جنجيل صفحة ٢٢٠

لولا أنها إرادة القدر . فاذا كان قد استطاع أن يتمسح في القدر  
ليجد لنفسه مخرجا من تهمة قطع الرأس في حد ذاتها فانه لن  
يستطيع أن يهرب من عار أقوى وأبشع عندما سمح بعد ذلك  
بأن ترفع الرأس وهي تقطر دما فوق حربة طويلة وأن يطوف  
بها أحد الجنود السنغاليين ليعلم بذلك عن فروسية فرنسا وشرفها  
في معاملة الرجال الذين يذودون عن شرف أوطانهم وحررياتهم ..

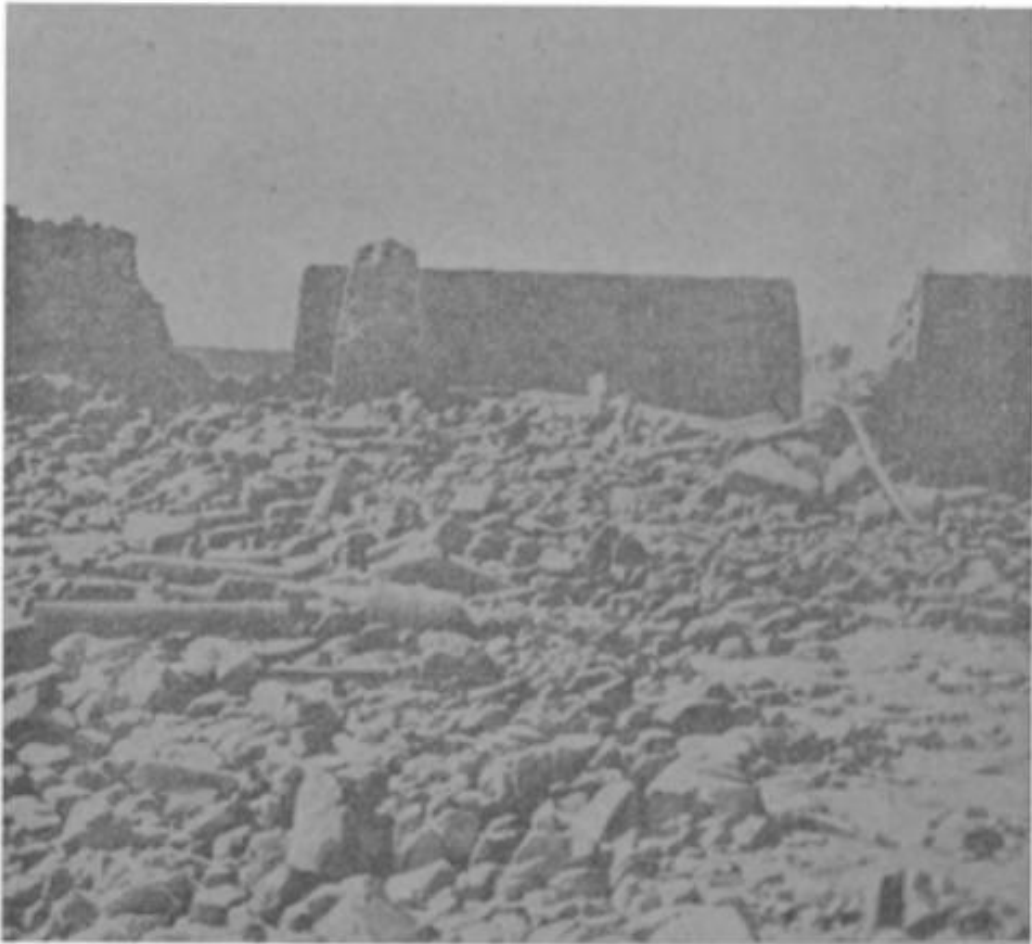
إن فرنسا التي لم يعرف حكامها عام ١٩٠٠ في قتالهم ضد  
راج معنى لكلمة الشرف هي نفس فرنسا التي يحفظ لها التاريخ  
حتى اليوم إنها قد رفعت فوق الرماح في كل مكان وطأته أقدامها  
في أفريقيا آلافا من رؤوس الأحرار كراس راج تقطر دما ،  
وتشهد عليهم وتنادى بالنار في يوم قريب . .

\* \* \*

بلغ مقتل راج ابنه فضل الله الذي كان مقيما في لوجون حيث  
انضمت اليه فلول جيش راج التي بقيت على قيد الحياة بعد معركة  
كاسورى فأثر عندئذ الانسحاب من تلك البلدة والاتجاه إلى دكوة  
للانضمام إلى أخيه ، محمد نيابي ، الذي كان لا يزال يعاني من أثر  
الجرح الذي أصيب به في معركة تجباو .  
وزحف الفرنسيون على لوجون لاحتلالها ثم بدأوا بعد ذلك

في الزحف على دكوة فاستسلمت لهم بغير قتال بعد أن كان  
فضل الله قد أخلاها هي الأخرى منذ أن علم بزحف  
الفرنسين عليها .

واقتمت القوات الفرنسية سراى راج بدكوة للإقامة بها  
واتخاذها مقراً لقيادتها . . ولكن أحد الفدائيين من رجال فضل  
الله استطاع أن يتسلل مستترًا تحت جناح الظلام إلى الدهليز الذي  
كان راج يحتفظ فيه بأسلحته وذخائره وأشعل فيه النيران فانفجر



فناه سراى راج بعد نسفه بيد رجال راج



ما يحتويه من بارود في دوى شديد ولم تلبث النيران أن امتدت إلى كافة أرجاء السراى فقضت على اثنين من ضباط المدفعية الفرنسيين وعلى عدد كبير من البنادق ومهمات المدفعية ثم مضت تلتهم النفاثس والرياش حتى أتت عليها جميعا بالرغم من الجهود التي بذلها الفرنسيون والتي لم تفلح في غير انقاذ بعض من الذخيرة التي كان امتداد النار اليها كفيلة بنسف مدينة دكوة بأسرها . أما القصر نفسه فقد تحول إلى حطام وأنقاض كانت هي كل ما بقي من ذلك البناء الشامخ الذي أدار منه راجح شتون امبراطوريته الواسعة الغنية التي كانت قد بدأت هي الأخرى تنهار وتهاوى إلى أكوام من أنقاض وذكريات .

تابعت القوات الفرنسية بعد ذلك مطاردة فضل الله فالتقت به في بلدة تدعى ديجامبا Deguemba فدحرته ولكنه استطاع مع ذلك الانسحاب بمن بقي معه من الرجال متجها نحو الجنوب فتعقبه الفرنسيون حتى عاودوا الاتصال به في بلدة إيسجى Isgué ، على حدود مندارا ، حيث دارت رحى معركة نانية لم تنته هذه المرة إلى نتيجة حاسمة وإن كانت قد أسفرت عن وقوع الكثيرين من معسكر فضل الله في الأسر ومن بينهم زوجته خديجة بنت السنوسى و نيارزا ، خلية كرامبل التي كانت تعيش منذ أن قتل عشيقها في كنف راجح ومن بعده ابنه فضل الله .

لم توهم هذه الهزائم المتكررة المتلاحقة من عزيمة فضل الله  
الذى ورث عن أبيه حب الكفاح وصلابة العزيمة فأنحدر نحو  
الجنوب وأقام في بلدة تسمى برجامة، وراح يحشد الجنود ويحرض  
الاهالى على القيام لأخذ الثأر وتطهير بلادهم من أعدائهم الفرنسيين .  
ولاقت دعوته نجاحاً كبيراً حتى اجتمع حوله من جديد جيش  
من نحو الفين من الرجال . وكانت الامور فى بورنو فى ذلك  
الحين قد بدأت تضطرب من جديد بعد أن اختلف الشيخ  
عمر الذى كان الفرنسيون قد ولوه على بورنو بعد سقوط دكوة  
مع سادته المختلين فعزلوه وولوا مكانه أخاه غرباوى بما أطمع  
فضل الله فى أن يغزو بورنو ويعيد سيرة أمبراطورية أبيه  
من جديد .

وفعلا هاجم فضل الله غرباوى هذا ودارت بينهما معركة  
بالقرب من بلدة ناجالا انتهت بهزيمة غرباوى وفراره إلى كانم (١)  
وأحيا هذا الانتصار آمالا واسعة فى صدر فضل الله ، ورفع  
كثيراً من روح رجاله المعنوية فعول بعده على مهاجمة الفرنسيين  
أنفسهم وأرسل إلى روييللو الذى كان قد تولى الادارة الحكومية  
بعد عودة جننيل إلى فرنسا يطالبه باسلا ب أبيه . ولم تكن القوات  
الفرنسية بعد أن أنهكتها كل تلك الحروب راغبة فى أن تبدأ حرباً

(١) حاصر العالم الاسلامى - تأليف الأميرشكيب أرسلان ص ٣٢٥ - ٣٢٧

جديدة مع فضل الله فأرسل اليه روييلو يفاوضه في عقد معاهدة  
بينهما يمنح فضل الله بمقتضاها حكم مقاطعة بورنو في مقابل أن  
يعترف بالحماية الفرنسية عليها<sup>(١)</sup>.

ولكن فضل الله أبي أن يتحالف مع أعدائه وأعداء أبيه أو  
أن يعطى الاحتلال الذي مات أبوه وهو يقاومه صكا بشرعية  
وجوده في تلك البلاد فيتساوى بذلك في الخيانة مع السلطان  
جوارنج فرفض هذا العرض وهاجم بلدتي مكارى وجولني  
واحتلها من جديد وبدأ يحرض قبائل البورنويين الذين عاشوا  
تحت حكم أبيه فساعدوا بما لم يساعدوا به تحت حكم من جاءوا بعده  
فرحبوا لذلك بالإنضمام إليه حتى قويت شوكته وبدأ أنه يوشك  
فعلا أن يعيد سيرة أبيه العظيم وأن ينتقم لمقتله المهين الذي تم  
عند أسوار كاسورى .

وكان غرباوى في ذلك الوقت قد عاد إلى ذكوة فهاجمه بها  
فضل الله وهزمه هزيمة ساحقة واستعاد بذلك العاصمة التي شهدت  
عهداً ذهبياً مجيداً تحت حكم رابع حتى نمت وازدهرت كسوق  
للتجارة ووضحت كما قدمنا المدينة الأثرى في وسط أفريقيا والتي  
كان فضل الله يأمل أن يعيد إليها المجد من جديد . .

ولكن انتصارات فضل الله هذه كانت أشبه الأشياء  
بانتفاضة الشعلة وتوجهها قبل أن يخمد ضوءها وتخبو أنفاسها إلى

(١) سقوط امبراطورية رابع - تأليف أميل جنزيل صفحة ٢٦٤

الأبد .. فقد أفلقت هذه الانتصارات السلطات الفرنسية إلى حد بعيد وخشيت أن يعيد فضل الله سيردأبيه وأن يجمع حوله الساخطين على الاستعمار الفرنسي الذي كان قد بدأ يسفر عن حقيقته وبصطدم بالأهالي وبنفوذ رؤساء القبائل فاستدعت روييلو لفشله في كسر شوكة فضل الله وعينت بدلا منه قائداً جديداً يدعى الكولونيل ديستيناف Destenave وكلت إليه مهمة القضاء على ذلك العدو الجديد .

وآذنت شمس الكفاح الوطني في تلك البقعة من افريقيا على الغروب فان ديستيناف لم يلبث أن وجه ضد فضل الله حملة كبيرة التقت به في معركة بالقرب من داتا نهر شارى واستطاعت أن توقع به الهزيمة الماصلة ، وبعد أن سقط صريعاً كما سقط رابع من قبل وتبدد جيشه فطويت بذلك نهائياً صفحة عاطرة من صفحات الوطنية التي كتبها بدمه ودم أولاده رجل نزع من جنوب السودان فكانت عبقريته صنوا لطموحه وكان عداؤه للاستعمار لا يقل عن حبه لتلك البلاد التي أحبها واتخذ منها وطناً ثانياً رواه بدمه في سناء بعد أن وقف حياته على رقيه والعمل على النهوض به .

لقد أفل نجم امبراطورية رابع .. ولكن سيرة رابع لم تأفل بعد ولن يستطيع النسيان أن يحوها من قلوب الأحرار فان امثال رابع كما يقول عنهم كارليل مؤرخ الأبطال ورجال تتحدى ذكراهم الزمن ويقف بين أعمالهم العظيمة الخالدة وناموس النسيان ستار كالفولاذ من محبة الأحرار في كل عصر وجيل . . .

## الاستعمار الفرنسي في غرب وشمال أفريقيا

في يوم من أيام عام ١٦٣٧ كان هناك شاب فرنسي يدعى «كلود جانكين دي روشفورت»، يذرع ارضه مينا «دييب» بفرنسا وقد ساوره الهام غامض بأنه سيكون واحداً من كبار المستكشفين . ولقد حدث أن سأل عن وجهة سفينة معينة فلما قيل له إنها في طريقها إلى نهر سيناجا بأفريقيا قرب رأس فيرد أصر على الالتحاق بها فلم تكذب تمضي بضع ساعات حتى كان قد قيد اسمه في سجل السفينة كجندي .

ويبدو أن تلك السفينة لم تكن تحمل على ظهرها جنوداً فحسب وإنما رهباناً أيضاً وكانت قد أعدت بناء على أوامر سلطات بعيدة النظر وكان خط السير المرسوم لها قبل أن يلتحق بها «روشفورت»، أن تصل إلى شواطئ أفريقيا الغربية لترسو شمال نهر السنغال حيث يقوم رجالها بقطع الأخشاب وبناء قارب صغير يستخدم لاستكشاف منطقة السنغال . وكانت هذه الخطة قد وضعت بناء على جهل بحقيقة هامة : وهو أن الساحل الأفريقي إلى الشمال من السنغال وإلى الجنوب من مراکش لا يحتوي على أية أشجار تصلح لبناء القوارب .

وعندما اكتشفت هذه الحقيقة عمدت تلك البعثة القادمة من « ديبب » تحت قيادة الكابتن « لامبرت » والتي كانت تضم بين رجالها روشفورت إلى التوجه إلى السنغال ببناء سفينة صغيرة من الأخشاب التي أحضرها معها من فرنسا . وإلى هذا القارب نقل بعض البحارة ومن بينهم روشفورت ، الذي كان يقوم بعمل السكرتير لقائد السفينة ومضوا فارتادوا حوالي ١١٠ ميلاً من نهر السنغال ابتداء من مصبه .

ولقد عادت بعد ذلك بعثة لامبرت إلى فرنسا بعد أن حصلت على امتيازات عديدة من الأهالي هناك ، ولم يلبث روشفورت بعد ستة سنوات من عودته أن نشر عن هذه المغامرة كتاباً حوى الكثير من التفاصيل الغربية الممتعة .

ولمدة طويلة لم يتبع بعثة لامبرت أية بعثة أخرى إلى أن باعت شركة « نورمانديا » حقوقها في منطقة السنغال إلى شركة « غرب الهند الفرنسية » التي نقلتها بدورها بعد ذلك إلى مؤسسة فرعية تسمى « شركة السنغال الملكية » التي عمدت إلى إرسال واحد من أقدر رجالها يدعى « أندريه دي برو » ليشراف على أعمالها هناك فجعل من قلعة سانت لوبس التي أقامتها بعثة دي روشفورت مقراً لقيادته .

وكان دي برو يجمع إلى مواهب العلماء دهاء التاجر البعيد

النظر حتى يمكن في الواقع اعتباره أول من وضع الأساس الحقيقي للإمبراطورية الفرنسية في غرب أفريقيا . . . ولقد قام ، خلال مدة إقامته هناك على شواطئ نهر السنغال التي امتدت إلى ثمانية عشر عاما ، برحلتين هامتين صاعدا خلال نهر السنغال ومتوغلا في الداخل كما زار جامبيا في عام ١٧٠٠ حيث التقى هناك عند مصب النهر بأحد الانجليز ممن يشتغلون بتجارة الرقيق يساعده معاونون من الهولانديين والبرتغاليين .

ولم يقتصر نشاط دي برو عند هذا الحد فقد عمد في أوائل القرن الثامن عشر إلى ارسال بعثة من عملائه لتوسيع رقعة النفوذ الفرنسي ولمد نفوذ شركته على طول نهر السنغال وفي اتجاه مقاطعة بامبوك العامرة بمناجم الذهب والتي تكون المنطقة الجبلية لأعلى نهر السنغال .

وعاد دي برو في النهاية إلى فرنسا عام ١٧١٥ ليعيش حياة رخية طويلة على الثروة الضخمة التي كان قد جمعها بعد أن نجح في أن يخلد اسمه كواحد من مؤسسي الامبراطورية الفرنسية في أفريقيا ، وفي أن يترك وراءه في تلك البلاد رجلا مثله في الدهاء والمهارة ليعموا العمل الذي بدأه هو . . . ومن بين هؤلاء نذكر « كومبايون » الذي كان استاذاً في المخاتلة والخداع والذي تمكن بمواهبه تلك من أن يجتذب قلوب المواطنين البسيطة

الساذجة بما ساعده على بسط نفوذه على ، بامبوك ، التي كان  
الاهالي هناك يصدون عنها كل غريب صيانة لأسرارها كموطن  
لاستخراج الذهب .

واستمر الفرنسيون في توسيع رقعة منشأتهم في السنغال  
حتى عام ١٧٥٨ عند ما استولى عليها البريطانيون الذين حافظوا عليها  
حتى عام ١٧٧٨ إلى أن استردها منهم الفرنسيون بمقتضى اتفاقية  
للسلام عقدت بين الدولتين . ولكن انجلترا كعادتها دائما في نقض  
المعاهدات عادت نخرقت تلك الاتفاقية وعاودت الاستيلاء  
على المستعمرة عام ١٧٩٠ إلى أن تمكن الفرنسيون مرة أخرى  
من استرجاعها منهم حوالى عام ١٨٠٠ .

وخلال الحرب النابوليونية احتل الانجليز من جديد ممتلكات  
الفرنسيين في السنغال فلما انتهت هذه الحروب بهزيمة نابليون  
عام ١٨١٥ كانت السنغال من بين المستعمرات التي سمحت الدول  
الأوروبية بعودتها إلى فرنسا . وعاود الفرنسيون من جديد  
محاولاتهم لتوسيع دائرة استعمارهم وارتياح منطقة سينجامبيا  
وما حولها من المقاطعات الغنية ، فما كادوا يفرغون نهائيا  
من احتلال حوض السنغال عام ١٨١٧ حتى بدأت هذه المحاولات  
تأخذ شكلا منظما .

ففي عام ١٨١٨ اكتشف ، موليان ، منابع نهر جامبيا بينما  
اكتشف ، دى بوفورت ، منطقة كارنا . وفي عام ١٨٢٧ بدأ



« رينيه كاييه، رحلته في نهر نونيتز بعد أن تلقى العون من مستعمرة سيراليون ( وهو الجميل الذي لم يحفظه لتلك المستعمرة بعد ذلك ) واستمر في سيره في نهر النيجر حتى بلغ « تمبكتو ، ومن بعدها عبر الصحراء إلى مراکش . والواقع أن تلك الرحلة الصعبة لم تفد كثيراً في توطيد أقدام الاستعمار الفرنسي في تلك البقاع في ذلك العهد لأن قائداً من أهل تلك البلاد يدعى « الحاج عمر ، كان قد بدأ ظهوره عندئذ ولم تؤد فتوحاته إلى إقفال الطريق إلى النيجر فحسب وإنما نجحت أيضاً في تهديد الاحتلال الفرنسي لمقاطعة السنغال نفسها .

بعد ذلك فقدت مستعمرة السنغال اهتمام فرنساها لفترة طويلة امتدت حتى عام ١٨٥٤ عندما نفي إليها الجنرال « فيد هرب ، الذي كان ، ولأسباب سياسية ، لا يتمتع بثقة الامبراطورية الفرنسية الثانية الحديثة العهد فرأت هذه التخلص منه بنفيه إلى تلك البلاد تحت ستار تعيينه حاكماً لها . وكان هذا الجنرال رجلاً ذا ذكاء بعيد وأطماع واسعة فبدأ منذ اليوم الأول من وصوله إلى تلك المنطقة يبحث جدياً امكانيات توسيع رقعة المستعمرة التي عين حاكماً لها .

وبدأ فيد هرب أولاً بمعاينة قبائل الموريش التي تقطن شمالي النهر والتي كانت قد دأبت على مهاجمة المنطقة بين الفينة والفينة ،

كما أخضع منطقة « وولى » وعمد إلى بناء قلعة « مدينا » لوقف تقدم الحاج عمر الذى منى فى هجومه على القلعة بخسائر فادحة اضطرته إلى الارتداد عنها بقواته التى كانت تبلغ نحو عشرين الفا من الرجال ..

واستطاع فيد هرب بعد هزيمة الحاج عمر أن يحتل بعض الاقاليم فى حوض السنغال الأعلى وحول منطقة جامبيا ولم يمض عام واحد حتى كان قد أتم احتلال المنطقة الواقعة بين سانت لويس ومصب نهر جامبيا وفى حوالى عام ١٨٦٠ أضاف إلى الممتلكات الفرنسية الشاطئ الواقع بين غينيا البرتغالية ومقاطعة سيراليون وأطلق عليه اسم الريفيرا الجنوبية .

وجاءت الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا وأدت إلى توقف العمليات الفرنسية فى تلك الجهات والتى لم تستأنف قبل عام ١٨٨٠ عندما شرع كابتن جاليني Gallieni فى إقامة خط حديدى يربط بين نهر السنغال الصالح للملاحة بمنطقة النيجر العليا التى كان قد بلغها فى ذلك العام عند بلدة باماكو . واسكن جاليني لم يلبث أن اضطر إلى الارتداد أمام هجوم الملك أحمدو ابن الحاج عمر وخليفته الذى شن عليه هجوما موفقا والذى كان سلطانه يمتد إلى المنطقة الواقعة بين السنغال الأعلى والنيجر .

ولقد بقى الملك أحمدو وشوكة فى جانب التموث الفرنسية وستاراً

منيعاً ضد تقدمها في بلاد النيجر إلى أن تمكنت حملة فرنسية بقيادة الكولونيل ديسبورد من احتلال عاصمته كيتا وإرغامه على توقيع معاهدة وضعت منطقتيه بمقتضاها تحت الحكم الفرنسي . وحوالي عام ١٨٨٣ كان الفرنسيون قد أنموا احتلالاً باماكو وتحصينها وبدأوا يخوضون صراعاً طويلاً ضد ساموري وهو ملك زنجي استطاع أن يرتفع من نشأة متواضعة إلى مرتبة الغزاة والفاحين وأن يبسط سلطانه على المناطق الواقعة حول منابع نهر النيجر . وفي خلال عامي ١٨٨٥ ، ١٨٨٦ وجهت فرنسا ضده حملة كبيرة تحت قيادة الكولونيل هـ فرى ، استطاعت أن تحقق بعض النجاح وإن لم تفلح تماماً في القضاء على نفوذ ذلك الملك الزنجي . وفي عام ١٨٨٧ عاد جاليني إلى عقد معاهدة أكثر سخاء مع احمادو واستطاع أن يقيم خطاً حديدياً حول منابع نهر السنغال كما استطاع أن يعقد معاهدة أخرى مع ساموري اعترف الأخير بمقتضاها بتبعية جزء صغير من منطقة النيجر العليا للحماية الفرنسية . وفي نفس العام ( ١٨٨٧ ) ارسل جاليني الملازم كارون في سفينة حربية لزيارة مدينة نومبكتو ، ولكن كارون هذا لم يكد يصل إلى ميناء نومبكتو المسمى كابارا حتى اصطدم بشعور العداة الذي أظهره نحوه الأهالي مما منعه من زيارة المدينة واضطره إلى العودة دون أن يحقق هدفاً واحداً .

وفي عام ١٨٨٨ بدأ كابتن بنجر لحساب فرنسا رحلة استكشافية أدت إلى نتائج باهرة للغاية . فقد كان هذا الضابط الفرنسي هو من أوائل من ارتادوا تلك البقاع المجهولة التي يضمها حوض نهر النيجر عند انحنائه العليا الشمالية كما استطاع عن طريق إبرام المعاهدات أن يبسط النفوذ الفرنسي والحماية الفرنسية فوق مقاطعات تيبه وكونج وباقي البلاد الواقعة بين نهر النيجر وشاطئ العاج .

وبدأ احمادو في عام ١٨٩١ يحاول أن ينفذ عن كاهل بلاده دنس النفوذ الفرنسي ويتمرد على المعاهدات التي عقدها مع أعداء بلاده تحت سيف التهديد والقسر ولكنه لم يلبث أن هزم في موقعة دارت بينه وبين قوات فرنسية تحت قيادة ضابط يدعى الكولونيل ارشينارد وانتهت تلك الهزيمة باضافة مستعمرات كاراتا وباخونو وسيجو إلى السنغال الفرنسي وبهذا استطاعت فرنسا أن تخلص ممتلكاتها في السنغال من الوقوع تحت سيطرة طريق تومبكتو الذي كان لا يزال حتى ذلك الحين مغلقاً في وجه النفوذ الفرنسي .

وصحب يقظة احمادو وتمرده على الفرنسيين يقظة أخرى قادها سامورى فما كاد ارشينارد يخلص من الأول على النحو السابق حتى استدار ليواجه الثاني واستطاع أن يحتل عاصمته «بيسانديجو» Bisandeejo بالقرب من حدود ليبيريا فتقدم سامورى نحو

وفي عام ١٨٨٨ بدأ كابتن بنجر لحساب فرنسا رحلة استكشافية  
أدت إلى نتائج باهرة للغاية . فقد كان هذا الضابط الفرنسي هو  
من أوائل من ارتادوا تلك البقاع المجهولة التي يضمها حوض نهر  
النيجر عند انحنائه العليا الشمالية كما استطاع عن طريق إبرام  
المعاهدات أن يبسط النفوذ الفرنسي والحماية الفرنسية فوق  
مقاطعات تيبه وكونج وباقي البلاد الواقعة بين نهر النيجر  
وشاطئ العاج .

وبدأ احمدو في عام ١٨٩١ يحاول أن ينفذ عن كاهل بلاده  
دنس النفوذ الفرنسي ويتمرد على المعاهدات التي عقدها مع أعداء  
بلاده تحت سيف التهديد والقسر ولكنه لم يلبث أن هزم في موقعة  
دارت بينه وبين قوات فرنسية تحت قيادة ضابط يدعى الكولونيل  
ارشينارد وانتهت تلك الهزيمة بإضافة مستعمرات كارانا وباخونو  
وسيجو إلى السنغال الفرنسي وبهذا استطاعت فرنسا أن تخلص  
ممتلكاتها في السنغال من الوقوع تحت ميطرة طريق تومبكتو  
الذي كان لا يزال حتى ذلك الحين مغلقاً في وجه النفوذ الفرنسي .  
وصحب يقظة احمدو وتمرده على الفرنسيين يقظة أخرى قادها  
ساموري فما كاد ارشينارد يخلص من الأول على النحو السابق  
حتى استدار ليواجه الثاني واستطاع أن يحتل عاصمته بيسانديجو،  
Bisandeejo بالقرب من حدود ليبيريا فتقدم ساموري نحو

وفي عام ١٨٨٨ بدأ كابتن بنجر لحساب فرنسا رحلة استكشافية أدت إلى نتائج باهرة للغاية . فقد كان هذا الضابط الفرنسي هو من أوائل من ارتادوا تلك البقاع المجهولة التي يضمها حوض نهر النيجر عند انحنائه العليا الشمالية كما استطاع عن طريق إبرام المعاهدات أن يبسط النفوذ الفرنسي والحماية الفرنسية فوق مقاطعات تيبه وكونج وباقي البلاد الواقعة بين نهر النيجر وشاطئ العاج .

وبدأ أحمادو في عام ١٨٩١ يحاول أن ينفذ عن كاهل بلاده دنس النفوذ الفرنسي ويتمرد على المعاهدات التي عقدها مع أعداء بلاده تحت سيف التهديد والقسر ولكنه لم يلبث أن هزم في موقعة دارت بينه وبين قوات فرنسية تحت قيادة ضابط يدعى السكولونيل ارشينارد وانتهت تلك الهزيمة بإضافة مستعمرات كارانا وباخونو وسيجو إلى السنغال الفرنسي وبهذا استطاعت فرنسا أن تخلص ممتلكاتها في السنغال من الوقوع تحت سيطرة طريق تومبكتو الذي كان لا يزال حتى ذلك الحين مغلقاً في وجه النفوذ الفرنسي .

وصحب يقظة أحمادو وتمرده على الفرنسيين يقظة أخرى قادها ساموري فما كاد أرشينارد يخلص من الأول على النحو السابق حتى استدار ليواجه الثاني واستطاع أن يحتل عاصمته «بيسانديجو» Bisandeejo بالقرب من حدود ليبيريا فتقدم ساموري نحو

الشرق حتى وصل إلى حدود مستعمرة ساحل الذهب ، وهناك بذلت محاولات متعددة خلال عامي ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ لمهاجمته والقضاء عليه في مملكته الجديدة بامت جميعها بالفشل الذريع وكان أهمها محاولة الكولونيل مونتيل ( وهو الذي كان قد سبق له القيام برحلة من السنغال إلى نيجر ومن هناك إلى بورنو ثم طرابلس عبر الصحراء ) فقد بدأ بحملة من ساحل العاج لم تلبث أن باءت بالفشل مما دفع الحكومة الفرنسية إلى استدعائه من تلك المناطق .

وفي النهاية ، وفي خريف ١٨٩٨ تقدم الملازم د وولفل ، وبعض الضباط الفرنسيين على رأس حملة قامت من ساحل العاج لمهاجمة ساموري ، فأوقع به هزيمة ساحقة وابد قوائه تماما . .

\* \* \*

وفي خلال حكم الملك لويس فيليب لفرنسا فترت الفتوح الاستعمارية إلى حد ما وإن كان هذا لم يمنع فرنسا من بذل محاولات ضعيفة لبط نفوذها على نيوزيلندا وتوطيد أقدامها في نيوكاليدونيا وتاهيتي في المحيط الهادي . كما سعت في هذه الفترة أيضاً إلى توسيع ممتلكاتها في إفريقيا بإخضاع المناطق الواقعة على السواحل الغربية لإفريقيا والتي لم تكن قد ضمتها بعد .

ولقد استطاعت فرنسا في ذلك الحين أن تكسب بعض الحقوق على مناطق باسام الكبرى وآسيني الواقعة إلى الغرب من

المنطقة البريطانية في ساحل الذهب . فلما كان عام ١٨٦٠ بذات الإمبراطورية الثانية بعض المحاولات للحصول على نفوذ متزايد في إفريقيا كان من نتيجتها أن استطاعت فرنسا في عام ١٨٦٨ الحصول على بعض الامتيازات في مدينة « بورتو نوفو » ، ولقد كان من الممكن أن تبيع فرنسا هذه الامتيازات لانجلترا في مقابل مبالغ ضئيلة غير أن السباق الاستعماري بين الدولتين الذي كان قد بدأ منذ عام ١٨٨٤ متخذاً إفريقيا مجالاً له لم يلبث أن أكسب تلك الامتيازات التي نالتها فرنسا أهمية قصوى في نظر الفرنسيين أنفسهم الذين طمعوا في أن يجعلوا منها نقطة ارتكاز في توسع نحو الشمال من خليج غينيا في اتجاه مستعمرة النيجر التي كانت فرنسا قد بدأت تحلم بالاستيلاء عليها .

وهكذا في عام ١٨٨٤ بدأ الفرنسيون احتلالهم الفعلي لمناطق باسام وآسيني على ساحل الذهب وبورتو نوفو التي كانت تعتبر كمملكة صغيرة تخضع لسلطان داهوم . ولقد أكسبت رحلة الكابتن « بنجر » التي قام بها من النيجر إلى ساحل الذهب منطقة باسام الكبرى أهمية خاصة وترتب عليها في عام ١٨٩١ سقوط المنطقة الواقعة على ساحل العاج بين باسام الكبرى وليبيريا في قبضة الاحتلال الفرنسي .

وكان من نتيجة كل ذلك أن أصبح ذلك الساحل الذي كانت



تعتبر مناطقه الداخلية من أكثر مناطق إفريقيا غموضاً على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لسفن التجارة الإنجليزية . وبالرغم من أن رؤساء المناطق الواقعة على هذا الساحل كانوا يقدمون مع صداقتهم لبريطانيا كافة التسهيلات لسفنهم التجارية إلا أن الحكومة البريطانية لم تتخذ أية خطوة أو تقدم أى احتجاج عندما احتلت فرنسا مقاطعات ذلك الساحل وأصبحت بذلك الجارة التالية لليبيريا التي سارعت في عام ١٨٩٤ بعقد معاهدة معها تخول لفرنسا الحق في التقدم لحماية تلك المملكة في حالة تعرضها لخطر الوقوع تحت نفوذ أو حماية أية قوة أخرى . .

ولم يلبث احتلال پورتونوفو أن أدى سريعاً إلى الاشتباك مع مقاطعة داهومي التي تحدث في فترات مختلفة كلا من الإنجليز والبرتغاليين وسخرت أكثر من مرة من جهودهم الخائبة لغزو شواطئها . وأسفرت المعارك الأولى مع هذه المقاطعة العنيدة إلى احتلال أولى موانئها وفرض النفوذ الفرنسي على أرجائها ولكن الملك « بيهانزين » سرعان ما عاود الهجوم والقتال مما اضطر القوات الفرنسية إلى أن تضاعف جهودها فسيرت ضده حملة في عام ١٨٩٣ تحت قيادة الجنرال « دودز » وكانت هذه هي المرة الأولى التي تغزو فيها هذه المقاطعة قوات نظامية تامة التسليح فكان طبيعياً بعد عدد من المعارك أن يتم احتلال البلاد نهائياً

وهزيمة ملكها الذي وقع في الأسر ونفى بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية .

في نفس الوقت كانت القوات الفرنسية تتقدم خطوة وراء خطوة خلال مناطق النيجر العليا فاستطاعت في ١٨٩٣ احتلال « جين » المدينة الهامة التي تعتبر مهد الحضارة النيجرية والأم الروحية لمدينة « تومبوكتو » . ومن جين سار الكولونيل إرشينارد متجها لغزو تمبوكتو دون انتظار لأوامر الحاكم العام لسينجاييا بل وقيل أنه بدأ هذه الحملة ضد أوامر الحاكم العام بالذات.

واستطاع إرشينارد أن يفتح مدينة تومبوكتو بعد معركة قصيرة اشتركت فيها فصيلتان من المشاة وحملة بحرية قامت من ميناء « كبارا » تحت قيادة القومندان بوايتيه . ولم يمض وقت قصير على احتلال المدينة حتى بدأ الطوارق يهاجمون المنشآت البحرية التي كان الفرنسيون قد أقاموها في ميناء كبارا واستطاعوا أن يلحقوا بها خسائر جسيمة . فما كادت هذه الأخبار تبلغ بوايتيه حتى غادر تومبوكتو قاصداً كبارا لملاقاة الطوارق ولم يلبث الموقف أن تحسن إلى حد كبير عندما لحقت به هناك في ١٤ يناير ١٨٩٤ طواير المشاة الأولى تحت قيادة الكولونيل بونيه Bonnier وخرج بونيه على رأس قوة صغيرة لتفتيش المناطق المجاورة لتومبوكتو لطرد الطوارق منها . وكان على حد كبير من الثقة

بنفسه فلم يحرص على اتخاذ وسائل الحيلة اللازمة فسار بقوانه مغمض العينين إلى الفخ الذى نصبه له الطوارق . . وفى الفجر هاجم الطوارق معسكره وأبادوا القوة الفرنسية عن آخرها فلم ينج منها سوى ثلاثة من الضباط وحفنة من الجنود أمكنهم الفرار ليروا القصة بعد ذلك .

وبعد خمسة وعشرين يوما وصل إلى مسرح الحوادث طابور آخر من المشاة بقيادة الكولونيل جوفر الذى لم يكد يفرغ من إزالة آثار المعركة السابقة حتى نشط إلى تعقب الطوارق للانتقام منهم . وبعد عدد من المناوشات استطاع جوفر أن يفاجئ معسكر الطوارق أثناء الليل وأن يبيد منهم عددا كبيرا . وكان هذا هو آخر عهد الفرنسيين بالطوارق الذين لم تهم بعد تلك المعركة قائمة .

بعد ذلك نشط الفرنسيون فى إرسال الدوريات التى تجوب نهر النيجر إلى أبعد نقطة شمالى تومبوكتو وفى انفاذ البعثات المتعددة التى لم تلبث أن اخترقت المنطقة التى ينحني فيها نهر النيجر من مساقطه العليا نحو مجراه الأوسط تعقد المعاهدات وتذثر الحكم الفرنسى فى كل منطقة تمر بها .

ومرة أخرى ، منذ أخضع الفرنسيون مملكة داهومى ، عادت القوات الفرنسية إلى استئناف التقدم نحو الشمال فى اتجاه خط الطول التاسع الذى كان يفصل بين الممتلكات الفرنسية

والانجليزية فاحتلت نيكي Nikki ( التي كان قد سبق للسكولونيل ليجارد احتلالها لحساب شركة نيجريا الملكية ) وبوسا . وكان إقدام الفرنسيين على هذا العمل على جانب كبير من الأهمية فلقد كان للانجليز سبق في إعلان خضوع تلك المنطقة للنفوذ الانجليزي مما أدى إلى ثورة الشعوب العام في انجلترا لتصرف فرنسا على ذلك النحو . و انتهى الأمر بعقد مؤتمر في باريس بقصد الوصول عن طريق المفاوضات إلى اتفاق بين الدوائين . وفي هذا المؤتمر سلمت فرنسا بعودة بوسا إلى انجلترا مع احتفاظها هي بمقاطعة نيكي وبالحق في التوسع لبسط نفوذها على الضفة الغربية لنهر النيجر . . وبهذا ربطت فرنسا فتوحاتها في مملكة داهومي ببقية امبراطوريتها في النيجر . .

\* \* \*

في أواخر القرن السابع عشر نصح لويس الرابع عشر وزيره لبيتز بالنزول على شواطئ مصر واحتلال ذلك الطريق الهام المؤدى إلى الهند . ولكن هذه الفكرة لم يقدر لها حينئذ الخروج إلى حيز التنفيذ فنامت في أرشيفات الحكومة الفرنسية إلى أن تصادف اكتشافها بعد ذلك بواسطة رجال حكومة الديركتوار عقب الثورة الفرنسية . وسواء أنقلت هذه الفكرة إلى نابليون بونابرت بقصد ارساله في مهمة فاشلة كتلك للنخلص منه أو أنها

جالت بخاطر نابليون نفسه دون أن يعلم بوجودها من قبل وتمنى القيام بها لتوجيه ضربة قاضية لطريق الاستعمار الانجليزي إلى الهند ، فإن القائد الكورسيكى لم يلبث على أى حال - وهو فى أوج نشوته بانتصاراته الباهرة فى إيطاليا - أن فاجأ أوروبا كلها بحملته على مصر بعد أن استطاع تضليل الأسطول الانجليزي والنزول إلى الاسكندرية فى عام ١٧٩٨ بقواته التى بلغ عددها حوالى أربعين الفا من الرجال .

والتقى نابليون بالمماليك الذين كانوا يحكمون مصر فى ذلك العهد باسم سلطان تركيا فوقع بهم الهزيمة وطاردهم إلى الصعيد ومن ثم استتب له الأمر فى القاهرة . وحاول لى يكسب عواطف المسلمين أن يدعى اعتناقه للإسلام وتحييده لمبادئه ولكن نلسون لم يترك نابليون طويلا ليتمتع بشرات انتصاره فهاجم أسطوله فى خليج أبى قير وحطمه تماما كما أنزل إلى الأراضى المصرية قوات تركية لطرده نابليون من مصر ولكن هذه القوات لم تلبث أن أيدت فى معركة أبى قير البرية التى كأنما أرادها نابليون أن يثار لأسطوله الغريق . .

وأدرك نابليون بعد أن تحطم أسطوله أنه قد حكم عليه بالبقاء فى مصر فحاول ابتلاع سوريا وقد خيلت له أوهامه أنه قادر على أن يقود منها جيوشه نحو القسطنطينية وإنشاء امبراطورية

في الشرق كما براطورية الاسكندر يكون هو عليها ملكا وسلطانا ..  
ومرة أخرى تصدى الانجليز لخطط نابليون فعملوا على  
معاونة حاكم عكا على الصمود لحصار نابليون لذلك الحصن حتى  
اضطر هذا الارتداد عنه مهزوما . ونجحت هذه الهزيمة في أن  
تنفض عن مخيلته أحلام الامبراطورية فلم يلبث أن غادر مصر  
متسللا إلى فرنسا وقد خلف من بعده مساعده كبير على رأس  
الحملة ولكن كبير لم يلبث أن قتل ، وثار المصريون ، ووجهت  
تركيا وانجلترا حملة مشتركة على مصر قررت مصير ما تبقى بها  
من القوات الفرنسية التي سلمت ونقلت عائدة إلى فرنسا ..

وبالرغم من فشل الحملة الفرنسية التي وجهت لاحتلال مصر  
فقد تركت من بعدها آثاراً بعيدة المدى : فقد نقلت مصر  
إلى الاحتكاك العنيف بمدينة أوروبا ومهدت لانفصالها عن  
الامبراطورية العثمانية كما جعلت اهتمام فرنسا بذلك الوادي يأخذ  
دوراً حاداً مما قربها في كثير من المناسبات من الالتحام بالانجليز  
الذين كان اهتمامهم بالمسألة المصرية وطمعهم في احتلال وادي  
النيل قد بدأ يأخذ طابعاً عملياً خطيراً ..

• • •

وفي عام ١٨٢٧ قام حاكم الجزائر ، التي كانت خاضعة في ذلك  
الوقت للحكم التركي والذي كان يتميز بالحزم في معاملة الرعايا

الأوروبيين ، قام هذا الحاكم بصفع القنصل الفرنسي على وجهه  
بمنفضة الذباب ، وتحملت فرنسا تلك الإهانة لمدة ثلاث سنوات  
إلى أن سنحت لها الفرصة عام ١٨٣٠ إبان حكم لويس العاشر  
الانتقام وتحقيق هدف قديم إذ عمدت لصرف الأنظار عن المحنة  
التي كانت تجتازها أسرة بوربون الحاكمة إلى تسيير حملة حربية  
ناجحة قوامها ٣٧ ألفاً من المشاة وقوة من الفرسان ورجال  
المدفعية استطاعت أن تنزل في ميناء « سيدى فريج » بالقرب  
من مدينة الجزائر .

وقاوم الجزائريون هذه الحملة ولكن ليس بالقدر الذي يتكافأ  
وشهرتهم كمقاتلين أشداء ربما لأنهم كانوا يصطدمون للمرة الأولى  
بقوات أوروبية تامة التسليح . . وعلى أى حال فإنه لم تكد تمضى  
ثلاثة أسابيع على نزول الحملة في « سيدى فريج » حتى سقطت  
مدينة الجزائر في أيدي الفرنسيين وأخذ الحاكم أسيراً ومن ثم نفي  
إلى مدينة نابولي بإيطاليا..

أثارت هذه الحملة اهتمام إنجلترا إلى حد بعيد فطلبت من فرنسا  
بياناً عن مشروعاتها في تلك البلاد وردت فرنسا على هذا الطلب  
بأن بذلت وعداً بأن يكون احتلالها لتلك البلاد مؤقتاً وأنها سوف  
تجلو عنها بمجرد أن تستتب الأمور وتعود المياه إلى مجاريها ، وكان  
طبيعياً أن يكون وعد فرنسا هذا ، الذي لم يقصد به غير التضييل

والتقوية ، كوعود روسيا في ذلك العهد فيما يختص باحتلالها  
لأوساط آسيا ، وكوعود إنجلترا حتى اليوم فيما يختص بجلائها  
عن مصر ..

وسقطت بعد ذلك حكومة شارل العاشر ولم تستطع الحكومة  
التي خلفتها أن تحمل على عانقها أمام الشعب الفرنسي مسؤولية  
الانسحاب من الجزائر بل وعمدت إلى جوار ذلك إلى اتباع  
سياسة خاطئة تقوم على الجهل والاستبداد مع سكان البلاد  
من العرب ، لم تلبث أن بدت نتائجها سريعاً . فإن هؤلاء السكان  
وإن كانوا لم يبذلوا جهداً كبيراً في حماية الحاكم التركي والدفاع  
عنه ، إذ كان يبدو لهم أجنبياً عن البلاد ، إلا أنهم ما كادوا  
يتحققون من أن بلادهم توشك أن تسقط في يد المسيحيين  
الذين لم يبذلوا في ذلك الحين ما يبرر تظاهرهم بمظهر المناهضين  
الدينيين حتى هبوا لمكافحة الاستعمار ووجدوا في زعامة الأمير  
عبد القادر وسيلة للكفاح الوطني ضد الغزاة الأجانب .

واستطاع الأمير عبد القادر خلال الفترة بين عامي ١٨٣٥ ، ١٨٣٧  
أن يلحق بالقوات الفرنسية الهزيمة تلو الأخرى فلم تجد فرنسا بداً  
في النهاية من أن تعقد معه معاهدة في عام ١٨٣٧ اعترفت فيها  
بسلطانه على رقعة واسعة من غرب ووسط الجزائر .

ومضى عامان على هذا الاتفاق ثم عادت الحرب فنشبت



من جديد بين الأمير عبد القادر والقوات الفرنسية التي كانت قد أسندت قيادتها إلى المارشال بوجو Bugeaud ولم يتردد هذا المارشال في أن يحمل في قسوة ووحشية على الأمير عبد القادر كما لجأ في قتاله معه إلى ضروب من الخسة والنذالة حتى استطاع في عام ١٨٤١ أن يجرد البطل القومي من كل نفوذه وأراضيه حتى اضطر في النهاية إلى الفرار إلى مراكش حيث عمل على تمكين جيش كبير عاود به غزو الجزائر ولكنه لم يفر في تلك المرة بغير الهزائم المتلاحقة وإن كان قد استطاع في مناسبات عدة أن يوقع بالفرنسيين خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد .

واضطر عبد القادر في النهاية إلى التسليم بعد أن وعده القائد الفرنسي بأن يبسر له سبيل مغادرة البلاد آمناً ليعيش في الإسكندرية أو نابولي . ولكن الحكومة الفرنسية لم توافق على هذه الشروط فنقضتها وأبقت عبد القادر في سجن خاص في إحدى القلاع الفرنسية إلى أن أصبح لويس نابليون إمبراطوراً على فرنسا فأطلق سراحه وسمح له بالعيش في مدغشقر إلى أن توفي عام ١٨٨٣ . وكانت الجزائر عند ما احتلتها فرنسا لا تخضع لحكومة موحدة : فقد كانت هناك حاكم الجزائر ، وحاكم أوران ، وبإي مقاطعة كوستانتين الذي كان يحكم أكثر الشاطئ الشرقي

للجزائر بينما كانت قبائل البربر التي كانت تسكن الجبال  
وأطراف الصحراء تتمتع من الناحية العملية بالاستقلال التام .  
وكانت مقاطعة كوستانتين من أقوى المناطق وأعصاها  
على الغزو الفرنسي الذي فشل في حروبه الأولى مع الباي  
في الاستيلاء عليها والذي لم يتمكن بعد ذلك من إخضاعها تماماً  
إلا في عام ١٨٤٧ .

في هذا الوقت كانت فرنسا قد بدأت الحرب مع مراکش  
وأسكنت بذلك أية محاولة كان من الممكن أن يقوم بها سلطانها  
للتدخل في شئون الجزائر كما كانت قد فرغت من إخضاع واحتلال  
كل بلاد الجزائر الواقعة إلى الشمال من جبال أطلس وهكذا لم يكد  
يقبل عام ١٨٤٨ حتى أعلنت فرنسا تبعية الجزء الجديد الذي  
احتلته من أفريقيا إلى نفوذها وضمه إلى مستعمراتها ليحكم كجزء  
من فرنسا ذاتها بعد أن قسمته إلى أقسام ثلاثة كان لكل قسم منها  
الحق في إرسال مندوبين عنه لتمثيله في البرلمان الفرنسي .

وفي عام ١٨٥٨ أعيد من جديد وضع الأسس التي يقوم عليها  
حكم تلك البلاد فأشئت في باريس وزارة جديدة باسم وزارة  
الجزائر ، وعين الأمير نابليون وزيراً لها ولكن هذا النظام  
لم يلبث أن ثبت فشله فصرف النظر عنه بعد عودة الإمبراطور  
من زيارة لتلك البلاد في عام ١٨٦٣ . وحكمت البلاد بعد ذلك

بواسطة حاكم عسكري خولت له سلطات واسعة ووضعت تحت تصرفه كل القوى السكيفية بتهدئة القبائل التي كانت قد هبت نائرة في ذلك الحين .

وبالرغم من كل ما بذل فقد ظلت تلك البلاد عرضة للقلاقل والثورات . وفي عام ١٨٧٠ عندما كانت الامبراطورية تحت مدافع الالمان الفت لجنة لبحث الامور في تلك المستعمرة ولاقتراح علاج يكفل إعادة الامور إلى نصابها . واستقر رأى اللجنة بعد مداوات طويلة على نيل فكرة الحكم العسكري واستبداله بحكم مدني ولكن نظراً لما حدث في أعقاب الحرب الفرنسية الالمانية من تمرد في منطقة الجزائر الشرقية فان توصيات تلك اللجنة لم توضع موضع التنفيذ إلا في عام ١٨٧٩ عندما الفت بالجزائر أول حكومة مدنية . ولقد كان من أول قرارات الجمهورية الفرنسية الجديدة التي قامت في نهاية ١٨٧٠ هو منح الجنسية الفرنسية لليهود المقيمين بالجزائر مع اختصاصهم بعدد كبير من الامتيازات ، وكان هذا القرار الخاطئ عاملاً جديداً في تمزيق الاستقرار بتلك المستعمرة بما أوجده من اختلاف في المعاملة بين العرب واليهود وهو الاختلاف الذي خلق بعد ذلك كثيراً من المشاكل .

وفي الفترة بين عامي ١٨٤٨ ، ١٨٨٠ بذلت مجهودات متعددة

كثيرة لتسهيل إقامة الفرنسيين بالجزائر واستيطانهم لها كما فتح نفس الباب لسائر الأجناس الأوروبية الأخرى. وكان من بين ما عمدت إليه الحكومة الفرنسية في هذا السبيل أنها كانت تختار بعض الجنود من شباب الجيش ثم تعمد زواجهم على الفتيات الفقيرات بعد أن تتكفل هي بنفقات ذلك الزواج وبدفع قيمة الدوطة في مقابل هجرتهم للإقامة في الجزائر حيث كانت تمنح كل أسرة من هذه الأسر مقاطعة واسعة من الأراضى ، ولكن أغلب هذه الزيجات كانت سرعان ما تنتهى بالفشل : فان الزوج ما يكاد ينفق الدوطة التى دفعها له الدولة حتى يهجر زوجته الشابة ويعمل جاهداً على العودة إلى فرنسا عن أى طريق . ومع ذلك فان عام ١٨٧١ ما كاد يقبل حتى كان نحواً من ١١,٠٠٠ مواطن من سكان الأازاس واللورين قد استوطنوا الجزائر وحصلوا فيها على اقطاعات من الأرض .

وفى الوقت نفسه ساعدت الطمأنينة التى بسطتها فرنسا على المعاملات التجارية على اجتذاب عدد كبير من الإيطاليين والمالطيين ( الذين استوطنوا الجزء الشرقى من الجزائر ) وعدد أكبر من الأسبانيين ( الذين أقاموا فى جزئها الغربى ) وعلى ربطهم بتلك المستعمرة . وما زالت اللغة الأسبانية حتى اليوم هى السائدة فى مقاطعة أوران على اللغة الفرنسية نفسها بينما تسود اللغة الإيطالية

في بون وكوستانتين وداخل البلاد حتى منطقة تيبيا .

وعلى هذا النحو أتمت أوروبا استعمار الجزائر لا بوساطة دولها الشمالية فحسب وإنما أيضاً بسكان منطقة البحر الأبيض الذين يرتبطون عن طريق صلة الدم بأجناس البربر التي تقطن شمال أفريقيا . وفي عام ١٨٦٣ أصدر الامبراطور نابليون قانوناً بنزع ملكية الأرض من القبائل والاعتراف بملكية العرب الفردية لها . ولقد استطاع هذا القانون ، وإلى حد كبير ، القضاء على نفوذ القبائل وتفتيت المجتمع القبلي وربط العرب بالأرض حيث لا يدبنون بالولاء لاية سلطة غير سلطة الحكومة القائمة ، وكان من الطبيعي أن تنشأ خارج حدود المناطق الخصبة الصالحة للزراعة حياة متنقلة بين السكان المتفرقين هناك بحكم ما تفرضه طبيعة الأرض القاحلة واستحالة زراعتها أو الاستقرار في ربوعها . وعاونت هذه الحياة على المحافظة على روح الحرب والقتال في صدور الأهالي هناك وعلى دفعهم بين الحين والآخر إلى القيام بالحروب والثورات . وفي حوالى عام ١٨٨٠ اضطرت فرنسا إلى جلب قوات عسكرية كبيرة بقصد اخماد ثورة عاتية قادها ، أبو عمام ، الذي استطاع أن يجمع حول رايته أغلب القبائل العربية التي تسكن المرتفعات الواقعة على حدود مراكش والتي لم تهدأ ثورتها إلا بعد أن تم انشاء خط حديدي يخرق أراضيها .

أما تونس فقد كانت تخضع هي الأخرى ، كالجزار  
وطرابلس ، للحكم التركي . وكان يحكمها في ذلك العهد ضابط تركي  
لم يلبث أن عمل على الاستقلال بها عن تركيا استقلالاً مقيداً  
بشروط عديدة رضى بها في مقابل حصوله على حق توارث الملك  
لأفراد أسرته . فلما سقطت الجزائر في يد الفرنسيين كان طبيعياً  
أن تتأثر تونس بتلك الأحداث التي تجرى بالقرب منها وأن  
تتحول أنظار فرنسا إليها .

وعمدت فرنسا أولاً إلى الاحتفاظ بعلاقات الملاينة والملق  
بينها وبين تونس حتى أنها لم تتردد ، عندما نشبت الحرب بينها  
وبين الأمير عبد القادر ، في أن تعرض على باي تونس أن يختار  
اثنين أو ثلاثة من أمراء أسرته ليتولون حكم أوران وكونستانتين  
وإن كانت الفكرة مع ذلك لم يقدر لها الخروج إلى حيز التنفيذ .  
وفي عام ١٨٦٣ قام باي تونس بزيارة الامبراطور نابليون  
أثناء وجوده في الجزائر غير أنه في أواخر العقد السادس من القرن  
التاسع عشر ، وكانت انجلترا حتى ذلك التاريخ حريصة على ضمان  
استقلال تونس ، جد في الموقف الدولي عامل جديد أثر  
على توازن القوى في منطقة البحر الأبيض وهو ظهور إيطاليا  
في الميدان العالمي كدولة موحدة . وصاحب هذا تدهور خطير  
في ميزانية تونس واقتصادياتها يشبه إلى حد كبير ما أصاب مصر

تحت حكم الخديوي اسماعيل . ولم يكن الباي مبذرا فحسب وإنما كان وزراؤه أيضا الذين لم يتورعوا عن سرقة البلاد بلا خجل وعن عقد القروض مع الدول الأجنبية لا لصالح البلاد وإنما لكي يزدادوا عم انتفاخا وثرأا على حساب رفاهية مواطنهم .

ومهدت المسألة المالية هذه الطريق لتدخل القوى الثلاث : إنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا . وهكذا تم في عام ١٨٦٩ تأليف لجنة ثلاثية من أعضاء تلك الدول لمراقبة الميزانية التونسية وإخضاع شئونها المالية لتدخل الدول الثلاث .

وبدأت تجارة إنجلترا مع هذه البلاد في أوائل العقد السابع من ذلك القرن تتناقص رويداً رويداً بينما مضى التدخل الفرنسي يقوى ويشتد حتى انتهى بحصول فرنسا على حق امتياز انشاء شبكة للتلفراف وعلى عقد انشاء سكة حديدية هامة بالبلاد بعد أن تخلصت عنها مؤسسة انجليزية كان قد سبق لها الحصول عليه .

وبدا واضحا أن الحكومة المحلية في تونس لن تقوى على الاستمرار ما لم تسندها دولة أوروبية . وبالرغم مما كان يمكن لإنجلترا أن تدعيه لنفسها من حقوق في تلك البلاد فقد تنازلت لفرنسا عن كل شيء عن طريق ممثلها الرسمي في مؤتمر برلين . وهكذا لم يبق لفرنسا من منافس في تونس غير إيطاليا التي بالرغم من أنها كانت تطمع في بسط سيادة روما القديمة على هذا الجزء

من شمال أفريقيا عادت هي الأخرى فأثرت الانسحاب عن تحدى  
فرنسا في هذا النضال . وهكذا وجدت فرنسا الطريق خاليا أمامها  
فباتت تتحين الفرصة للقيام بعمل جري\* حاسم .

وسنحت الفرصة في النهاية عندما قامت بعض القبائل التونسية  
بهجمات محدودة للسطو على حدود الجزائر فاستغلت فرنسا هذا  
الحادث البسيط لغزو تونس بقوات جرارة استطاعت أن تنتزع  
من الباي في قصره الريفي معاهدة « قصر السعيد » التي وضعت  
تونس بمقتضاها تحت الحكم الفرنسي .

وعندما أعلنت هذه الأنباء وأذيعت خارج البلاد هاج الرأي  
العام ضد فرنسا وحكومة الباي التي سلبت البلاد للاستعمار  
الفرنسي . وانهت تونس بالثورة ضد القوات الغازية التي الفت  
نفسها مضطرة للقتال في أغلب مناطق تونس الشمالية . ولكن  
ما كاد ينقضى عام واحد حتى كان كل شيء قد انتهى وعاد الهدوء  
يبسط أستاره فوق البلاد . وفي عام ١٨٨٣ استبدلت معاهدة  
قصر السعيد بانفاق آخر آتمت به فرنسا وضع يدها نهائيا على تونس  
كما تم في العام نفسه الاعتراف الرسمي من باقي القوى التي كانت  
تتنازع النفوذ في تونس بشرعية وضع فرنسا في تلك البلاد .

وفي عام ١٨٩٧ ألغيت كافة المعاهدات التجارية السابقة التي



كان قد عمدتها الباي واستبدلت بمعاهدات أخرى تضمن لفرنسا كافة الامتيازات بالنسبة لباقي الدول .

ومنذ بداية عام ١٨٩٨ اعتمبرت تونس نهائيا جزءا من الامبراطورية الفرنسية ولقد حدث بعد ذلك اما بالصدقة أو طبقا لخطة موضوعة ، أن تولى شتون فرنسا في تونس رجال قديرون في تنفيذ السياسة الاستعمارية فاستطاعوا أن يوطدوا أقدام فرنسا في تلك المنطقة من العالم وأن يصمدوا للحركات الوطنية التي لم تكف يوما واحداً عن الاشتغال بها .

\* \* \*

حدث بعد ذلك نتيجة لتوسع مستعمرة السنغال تحت قيادة الجنرال فيدهرب ، واحتلال الواحات الواقعة في قلب الصحراء الكبرى كواحة وارجلا Wargla وواحة جوليا Golea أن بات الاتصال بين المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا وغربها هدفا يمكن تحقيقه وبدأ الاهتمام بمشروع انشاء الخط الحديدي المسمى « ترانس شاريان » يأخذ شكلا جديا واضحا بعد أن كانت فكرته خلال العقد السادس من القرن التاسع عشر تبدو وكأنها خيالا بعيد التحقيق .

ولكن حدث في عام ١٨٨١ أن اغتيلت بعثة « فلاترز ، Flatters في الصحراء الكبرى وأظهرت قبيلة الطوارق عداء مسافرا

ومعارضة شديدة لآى امتداد للنفوذ الفرنسى عبر الصحراء  
فعدت فكرة الخط الحديدى إلى الانزواء من جديد وساعد  
على ذلك إلى حد كبير النفقات الباهظة التى كان يحتاج إليها لإنشاء  
الخط وطبيعة البلاد غير المجزية التى كان مقدرًا له أن يخترقها .

ولكن فرنسا كانت لا تزال حريصة على ألا تزحف أية قوة  
أوروبية لتقف سدا بين مستعمراتها فى شمال أفريقيا وامبراطوريتها  
فى النيجر فعدت فى عام ١٨٩٠ إلى الحصول من الحكومة  
الانجليزية على ضمان لهذه النقطة وعلى اعتراف منها بامتداد منطقة  
النفوذ الفرنسى من مستعمرة النيجر حتى شواطئ بحيرة تشاد  
الشمالية الغربية .

واستطاع النفوذ الفرنسى بعد ذلك أن يتسلل إلى أراضى  
الكونغو فيما وراء النيجر وساور المسئولين الفرنسيين الحلم بإنشاء  
امبراطورية واسعة تمتد من شواطئ البحر الأبيض شمالا حتى  
نهر الكونغو وشواطئ المحيط الأطلنطى جنوبا . وكانت فرنسا  
قد استطاعت منذ عام ١٨٢٩ أن تؤد أقدامها فيما يمكن أن يسمى  
اليوم بساحل الكونغو أو غينيا السفلى فى الوقت الذى كان فيه  
الملك لويس فيليب يتابع بغير اهتمام كبير مشروع الاستيلاء  
على ساحل أفريقيا الغربية .

وكان الملك ديفيس حاكم جابون فى تلك الاثناء قد أظهر

ترحيبا ورعاية لبعثات التجار والمبشرين الكاثوليكين ووافق على وضع مملكته تحت النفوذ الفرنسي مما مهد لاحتلالها بواسطة الجيوش الفرنسية بعد ذلك عام ١٨٤٤ ، وقد تم بناء مدينة ليرفيل ، العاصمة الحالية في عام ١٨٤٨ بواسطة قافلة من العبيد كانت على إحدى السفن التي أسرتها البحرية الفرنسية ثم منحوا حريتهم بعد ذلك ليكونوا نواة السكان في المدينة الجديدة .

ولقد كلفت شئون جابون السياسية فرنسا كثيراً حتى لقد عرضتها على انجلترا أكثر من مرة للمبادلة عليها بمستعمرة جامبيا . ولكن لم تلبث الرغبة التي كانت تسود فرنسا عام ١٨٨٠ بتوسيع مستعمراتها والحصول على امبراطورية واسعة مترامية الأطراف أن دفعتها إلى تغيير وجهة نظرها فيما يتعلق بجابون والعمل على مد نفوذها هناك لتصل به إلى شواطئ المحيط صوب الكاميرون ومصب نهر الكونغو وهو الطريق الذي كان المستر ستانلي ، الرحالة العالمي قد نجح في اجتيازه .

وحدث قبل عودة مستر ستانلي من رحلته تلك أن دعا ملك بلجيكا جمعا من الجغرافيين والعلماء لعقد مؤتمر في بروكسل يتولى بحث امكانيات احتلال أفريقيا بواسطة هيئة دولية تتولى شئون تلك القارة . واسفر المؤتمر عن تكوين لجان وطنية كان عليها أن تتولى باسم الدولة التي تمثلها مهمة استكشاف جزء

من القارة الأفريقية . وهكذا أرسلت فرنسا مسيو دي برازا De Brazza لاكتشاف منطقة جابون في الوقت الذي كان فيه مستر ستانلي يستعد للقيام برحلاته الثانية لاكتشاف منطقة الكونغو لحساب ملك بلجيكا .

واستطاع دي برازا أن يسرع في تقدمه مارا بمنطقة الكونغو العليا عاقدا المصادقات لصالح فرنسا ورافعاً أعلامها في كل مكان تطأه قدماه ولم يلبث التنافس على الكشف والغزو ان استمر لمدة سنين طوال بين بعثة ستانلي ، التي أصبحت تدريجياً تعمل لخدمة حكومة بلجيكا رسمياً ، وبين بعثة دي برازا . فلما عقد مؤتمر برلين في ١٨٨٤ - ١٨٨٥ ودار البحث حول إنشاء ولاية الكونغو الحرة رؤى وضع تلك الولاية تحت حكم ملك بلجيكا وكان معنى هذا أن تتنازل فرنسا لبلجيكا عن أكثر المناطق الغربية والشمالية من حوض نهر الكونغو . وقبلت فرنسا في النهاية ذلك الوضع في مقابل وعد من المؤتمر بأنه إذا تقرر في المستقبل نزع ولاية ملك بلجيكا عن الكونغو الحرة فإنها سوف تعطي عندئذ لفرنسا .

وكانت فرنسا تطمع منذ زمن طويل ، حتى قبل أن يمد دي برازا نفوذها إلى شواطئ نهر الأوبنجي ، أن تتوغل شمالاً نحو نهر شارى وبحيرة تشاد . وفي عام ١٨٩٠ كان بول كرامبل هو

أول مستكشف فرنسى يعبر مناطق البنتو المجهولة تاركا وراءه غابات الكونغو ليتقدم فى الأراضى الواسعة المنبسطة التى تكون السودان الوسطى . ولكنه هوجم وقتل كما قدمنا بالتفصيل فى الفصول السابقة وجاء من بعده عدد من المستكشفين أمثال ديباوسكى ، وميستر ، وجنتيل . وقد استطاع الأخير كما رأينا أيضا فى الفصول السابقة أن يمخر عباب نهر شارى بباخرته النيلية المسلحة وأن يصل بها إلى بحيرة تشاد .

ولم تلبث فرنسا بعد أن تخلصت من المقاومة العنيدة الباسلة التى حمل رايح لواءها ان نجحت فى إبرام سلسلة من المعاهدات بينها وبين انجلترا و المانيا وبلجيكا اعترف لها فيها بمناطق نفوذها فى السودان الوسطى اعترافا تاما . .

وبهذا العمل الأخير نجحت فرنسا فى تحقيق حلها القديم بإنشاء امبراطورية واسعة تمتد بغير انقطاع من الجزائر شمالا حتى الكونغو جنوبا وكان هذا هو أعجب عمل شهده تاريخ الجشع الاستعمارى وقد تمخض عن نزول تلك القوة الهزيلة المؤلفة من ثلاثين ألف رجل والتى هبطت شواطئ افريقيا فى صيف عام ١٨٣٠ فى ميناء سيدى فريج ، بالقرب من الجزائر .

ولكن هذا التوسع العجيب الذى قام على الخسة والخديعة والتكليل بالمواطنين الأحرار واستغلال بساطتهم وسذاجتهم

لم يرض مع ذلك أطماع فرنسا التي كان يحكمها رأس المال المتزايد والذي انطلق كالغول بأحشا عن أسواق ومستعمرات في نهاية القرن التاسع عشر . فتراها في مطلع القرن العشرين ، وبعد فراغها من إنشاء تلك الامبراطورية الواسعة ، تتطلع إلى مد نفوذها عبر النيل نحو الحبشة وخليج عدن ونرى صحفها تتحدث في وقاحة عن أن الحبشة هي هدف فرنسا التالي .

ووقفت إنجلترا وإيطاليا ، كما رأينا خلال الأعوام الخمسين الماضية ، في وجه أحلام فرنسا المتعلقة بشرق أفريقيا ولم تستطع فرنسا بعد ذلك أن تحقق هدفا واحدا من أحلامها الجديدة سوى أن تبسط نفوذها على الصومال الفرنسي ، وأن تمده حتى يقترب من مدينة هرر . .

---

# مراجع الكتاب

## المراجع العربية

- ١- الزبير باشا رجل السودان تأليف القا مقام سعد الدين الزبير  
الطبعة الأولى ١٩٥٢
- ٢- تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته تأليف  
نعوم شقير بك طبع ١٩٠٣
- ٣- تاريخ مصر في عهد الخديوى اسماعيل ( الجزء الثانى ) تأليف  
الاستاذ الياس الايوبى طبع ١٩٢٣
- ٤- حقائق الاخبار عن دول البحار ( الجزء الثانى ) تأليف  
اسماعيل سرهنك باشا طبع ١٣٤١ هـ .
- ٥- حاضر العالم الإسلامى . تأليف لوثر وب ستودارد الأمريكى  
وضع الامير شكيب أرسلان وترجمة الاستاذ عجاج نويهض  
( الجزء الاول ) طبع ١٩٢٥ .
- ٦- أسفار محمد عثمان مرغنى فى غرب أفريقيا وانجلترا وعودته  
للسودان مع رفقاءه بعثة نيجريا طبعة بيروت ١٩٢٧
- ٧- دائرة معارف البستانى . المجلد العاشر .

## المراجع الأفرنجية

1. La Chute de l'Empire de Rabah. Emile Gentil Paris 1902.

2. La Vie du Sultan Rabah. Les Français au Tchad . Gaston Dujarric Paris 1902 .

3. Rabah et les Arabes du Chari. Documents Arabes et Vocabulaire . Docteur Decorse . Medecin des Troupes Coloniales .

M. Gandefroy - Demombynes Professeur a l'Ecole Coloniale .

4. A La Conquête du Tchad. Harry Alis. Paris 1891 .

5. Babeh. Das Tschadseegebiet Von. Dr. Max Freiherrn Von Oppenheim. Berlin 1902.

6. Gessi. Sette Auni Nel Sudan Egiziano . Milan 1891 .

7. Nouveau Larousse Illustré. Dictionnaire Universel Encyclopédique Publié sous La Direction de Claude Augé Supplément .

8. A History of the Colonization of Africa by Sir Harry H. Johnston, K. C. B., G.C. M. G. 1905

9. Black Ivory . H. C. Jackson, Sudan Civil Service 1913 .

10. Schweinfurth . The Heart of Africa.

11. Cyril Claydon . The rise of French. Imperialism. London 1945.



# فهرس الكتاب

صفحة	
١١	مقدمة
	نشأة راج
٢٠	تحت لواء الزير
٣٦	ضد الاستعمار الانجلىزى
٤٥	راج . . . والحركة المهدية . . .
	امبراطورية راج
٥٤	راج . . . وطلائع الاستعمار الفرنسى . . .
٦٤	امبراطورية راج . . .
٧٨	راج . . . الامبراطور . . .
٨٩	الجالسوس الفرنسى
١٠٠	انتقام راج . . .
١١٥	معركة كونو
١٣٥	ثلاث حملات ضد راج
١٣٨	انهيار امبراطورية راج
١٥٣	الاستعمار الفرنسى فى غرب وشمال افريقيا

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف



٣١ شارع الجيش ت ٤٣٨٩٢